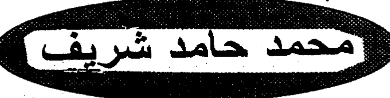
قطوف من ثمار الأدب
في العصر الإسلامي
رؤية فنية



دكتـــور

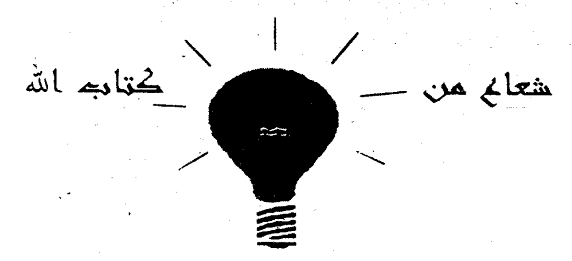


عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر بدمياط

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسَهم ذكرَوا الله فاستغفَروا لذنوبِهم ومنْ يغفرُ الذنوبَ إلا اللهُ ولمْ يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ۞ . أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجرُ العاملين(1) ۞﴾

صدق الله العظيم

---

(1) آل عمران آية ١٣٥- ١٣٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله العظيم وأثنى عليه الخير كله وأصلى وأسلم على من لا نبــي بعده وعلى آله وصحبه الذين ارتشفوا من رضابه ، واشتقوا من آدابــه فكانت منهم وبهم خير أمة أخرجت للناس **وبعد:**

فقد جاءت دعوة محمد ﷺ فانقسم العرب تجاهه بين مؤيد ومعــارض، وتبعاً لذلك كان في كل طائفة من ينتصر لهــا مــن الشــعراء ، فمــن الشعراء من آمن بالله رباً وبمحمد نبياً ورسولاً ، فحسن إسلامه وإيمانه فوقف يدعو إلي الإسلام ويزود عنه بلسانه وسنانه ، فلم يمــر حــادث إسلامي إلا وواكبه بشعره ؛ ولهذا كانت الأشعار التي نظمت في صدر الإسلام ، دليلاً على دور الشعر في مساندة الدعوة الإسلامية ، وفــي المقابل كانت الفئة الضالة المعارضة ــ من الشعراء ــ ممن طمس الله علي بصيرته وسيطر عليه شيطانه ، فراح يصد عن سبيل الله متخــذاً من أشعاره أداة إيذاء لرسول الله ﷺ وأتباعه الكــرام تثبيطــاً لهمــتهم وإضعافاً لعزيمتهم ، وفي عصر الخلفاء الراشدين ظهرت في عهد أبي بكر بوادر الردة ، ووقف أبو بكر الصديق وقفة البطل الجسور ، وكان

للشعر والشعراء دور بارز في تصوير تلك الحروب والوقوف في وجه المرتدين . وبعد حروب الردة انشغل المسلمون بالفتوحات الإسلامية ، فكان ذلك دربا جديدا من دروب إثارة الشعراء واندفاعهم في مصارعة الأعداء باللسان وتصوير ما حدث من بطولات إسلامية خالدة سجلتها روائع الشعراء ، ورأينا إبداعاً آخر يُعد بذوراً لفن القصة الشعرية عند العرب إذن فملكة الشعراء الذين آمنوا لم تفتر بإسلامهم " وهذا أمر طبيعي لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله في الجاهلية وكانوا قد انحلت عقدة لسانهم وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه " (١)

وقد سلكت في دراستي لتلك النصوص طريقة لا هي بالموجزة المخلة ولا بالطويلة المملة لتكون للقارئ المتوسط زاداً ولزميله المتوثب معلماً ومنارةً على طريق البحث والاستنباط ، وهي مهمة لا أظن أن أحداً يبلغ فيها الكمال إلا بعون من الله وتوفيقه.

إذا لم يكن عون من الله للفتى & فأول ما تجنى عليه مواهبه

"وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"

(١) راجع العصر الإسلامي د/ شوقي ضيف ص ٤٢ .

من قصيدة لكعب بن زهير [١] في مدح النبي ﷺ

(من البسيط)

بَـانَتْ سُعَـادُ فقلبي اليـومَ مَتْبـول ... مُتيَّمٌ إِثْرَهـا، لم يُفْـدَ، مَكْبُـولُ [٢]

ومـا سعـادُ غَـدَاةَ البينِ، إذْ رَحَلُوا ... إلاّ أغَنُّ غَضيضُ الطَّرفِ، مَكْحُـولُ [٣]

تَجْلُـو عَـوارِضَ ذي ظَلْمٍ، إذَا ابتسمتْ ... كأنَّـهُ مُنْهَـلٌ بِـالرَّاحِ، مَعْلُـولُ [٤]

إخَـالُهـا خُلَّـةً، لـوْ أنّهـا صَـدَقَتْ ... مَوْعُودَهـا، أوْ لَوَ انَّ النُّصْحَ مَقْبُـولُ [٥]

---

(١) كعب بن زهير بن أبي سُلمى المزني ، أحد فحول الطبقة الثانية عند ابن سلام ، وكان كعب فحلاً مجيداً ، وكان أخوه بجير أسلم قبله ، وشهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة ، وكان أخوه كعب أرسل إليه ينهاه عن الإسلام فبلغ ذلك النبي ﷺ فتوعده ، فبعث إليه بجير يحذره ، فقدم على رسول الله ﷺ فبدأ بأبي بكر ، فلمّا سلّم النبي ﷺ من صلاة الصبح ، جاء به وهو متلثم بعمامته ، فقال يا رسول الله ، هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام ، فبسط النبي ﷺ ، يده ، فحسر كعب عن وجهه ، وقال : هذا مقام العائذ بك يا رسول الله ! أنا كعب بن زهير ، فتهجمته الأنصار ، وغلّظت له ، وأحب المهاجرون أن يسلم ويؤمّنه النبي ﷺ فأمنه ، واستنشده هذه القصيدة . ويقال : إن إسلامه كان في السنة التاسعة للهجرة ، وتوفي سنة ٢٦ هـ/ ٦٥٤ م . وقد وصف شعره بقوة التماسك ، وجزالة اللفظ ، وسمو المعنى ، له ديوان شعر مطبوع . انظر في ترجمته : الديوان . وطبقات الشعراء ، ص ٢٠ - ٢٥ . والشعر والشعراء ص ٥٩ - ٦٠ ، ٦٧ - ٧٠ . وجمهرة أشعار العرب ص ١٣٢ . ومابعدها . وتاريخ ابن الأثير ٢٧٤/٢ . والأعلام ٢٢٦/٥ . ومنح المدح . ص ٢٥٤ - ٢٧٠ .

(٢) بانت : فارقت ، ومتبول : من تبله الحب ، أسقمه وأضناه . ومتيم : مذلل بالحب . ولم يفد : لم يجد من يفديه ، ومكبول : محتبس عندها .

(٣) غداة البين : صباح الفراق . والأغن : الذي في صوته غُنّة . وغضيض الطرف : فاتره ، منكسر الأجفان .

(٤) تجلو : تكشف . والعوارض : الضواحك من الأسنان ، وهي ما بين الثنية والضّرس . والظلم : ماء الأسنان وبريقها وبياضها . ومنهل : أي أول شربة . والراح : الخمر . والمعلول : قد سقي مرتين ، والعَلَل : الشرب الثاني .

(٥) الخلة : الخليلة الصاحبة .

فلا يَغُرَّنْكَ ما منَّتْ، وما وَعَدَتْ　　إنَّ الأماني والأحلامَ تضليلُ
كانَتْ مواعيدُ عُرْقوبٍ لها مَثَلاً　　وما مَوَاعِيدُها إلاَّ الأباطيلُ[1]
أَرْجُو وآمُلُ أنْ تَدْنُو مودَّتُها　　وَمَا إخالُ لَدَيْنَا مِنْكِ تَنْويلُ[2]
أمْسَتْ سُعادُ بأرْضٍ لا يُبَلِّغُها　　إلاَّ العِتاقُ النَّجيباتُ المَراسِيلُ[3]
يَسْعَى الوُشاةُ جَنَابَيْها وقَوْلُهُمُ:　　«إنَّكَ يا ابنَ أبي سُلمى لمقتولُ»[4]
فقلتُ: خَلُّوا سبيلي، لا أبا لكُمُ　　فكُلُّ ما قَدَّرَ الرحمنُ مفعولُ[5]
كُلُّ ابنِ أُنْثَى، وَإنْ طالَتْ سَلامَتُهُ　　يوماً عَلَى آلةٍ حَدْباءَ مَحْمُولُ[6]
أُنبِئْتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوْعَدَني　　والعفوُ عِنْدَ رسولِ اللهِ مأمولُ[7]
مَهْلاً: هداكَ الذي أعطاكَ نافلةَ　　القرآن، فيهِ مواعيظٌ وتفصيلُ[8]

---

(١) عرقوب بن نصر : رجل من العمالقة ، نزل بالمدينة قبل أن ينزلها اليهود ، وكان صاحب نخل . وإنه وعد صديقاً له ثمر نخلة من نخله ، فلما حملت وصارت بلحاً ، أراد الرجل أن يصرمه ، فقال عرقوب : دعه حتى يشقِّح ، أي : يحمر أو يصفر ، فلما شقَّحت أراد الرجل أن يصرمها ، فقال عرقوب : دعها حتى تصير رطباً ، فلما صارت رطباً قال : دعه حتى يصير تمراً ، فلما صار تمراً انطلق إليه عرقوب ، فجذَّه ليلاً ، فجاء الرجل بعد أيام ، فلم يرَ إلاّ عوداً قائماً ، فذهبت وعود عرقوب مثلاً .

(٢) تنويل : عطاء .

(٣) لا يبلغها : أي لا يبلغ سعاد إليها ، والعتاق : النوق أو الإبل الكرام . والنجيبات : السريعات . والمراسيل : الخفاف التي تعطيك ما عندها عفواً .

(٤) جنابيها : أي حوالي الناقة .

(٥) لا أبا لكم : أي لا أبا حراً لكم . وانظر : شرح بيت زهير ـ الذي يقول فيه : « سئمت تكاليف الحياة ومن يعش .. »

(٦) آلة حدباء : المقصود هنا الآلة التي يحمل عليها الميت ، أي : النعش . والحدباء : مؤنث الأحدب . أي : الذي تقوس ظهره لعلة أو لكبر السن .

(٧) أنبئت : أعلمت وأخبرت . وأوعدني : هددني . ومأمول : متوقع .

(٨) النافلة : العطية الزائدة . وتفصيل : تبيين وتوضيح .

لا تَأْخُذَنّي بِأَقوالِ الوُشاةِ، وَلَمْ ... أُذْنِبْ، وإنْ كَثُرَتْ فِيَّ الأَقاويلُ (١)

لَقَدْ أَقومُ مَقاماً لَوْ يَقومُ بِهِ، ... أَرى وأَسمعُ ما لو يَسْمَعُ الفيلُ (٢)

لَظَلَّ يُرْعَدُ إلاّ أَنْ يَكونَ لَهُ ... مِنَ الرَّسولِ بِإِذْنِ اللهِ تَنويلُ (٣)

حتَّى وضعتُ يميني، لا أُنازِعُهُ ... في كفِّ ذي نَقَماتٍ، قِيلُهُ القِيلُ (٤)

لَذاكَ أَهْيَبُ عِنْدي إذْ أُكَلِّمُهُ ... وقيلَ: إنَّكَ منسوبٌ وَمَسْؤولُ (٥)

من خادِرٍ من لُيوثِ الأُسْدِ مَسْكَنُهُ ... بِبَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دُونَهُ غِيلُ (٦)

إنَّ الرَّسولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ (٧)

في فِتيةٍ مِنْ قُرَيشٍ قالَ قائِلُهُمْ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمّا أَسْلَمُوا: زُولُوا (٨)

زَالُوا فَما زالَ أَنْكاسٌ ولا كُشُفٌ ... عِنْدَ اللِّقاءِ وَلاَ مِيلٌ مَعازيلُ (٩)

---

(١) لا تأخذني : لا تهمني بأقوال الوشاة .

(٢) لقد أقوم مقاماً لو يقوم به الفيل لظل .. ولما كان الفيل عنده ضخماً توهم أنه أسمع الأشياء .

(٣) يرعد : تناله الرعدة ، أي : الفزع والخوف ، وأراد ذلك للتهويل والتعظيم . والتنويل : العطاء ، وهنا الأمان والعفو .

(٤) لا أنازعه : لا أخالفه . ذي نقمات : صاحب سطوة وقوة . وقيله القيل : أي قوله هو القول النافذ .

(٥) أهيب : أرهب . ومنسوب : أي منسوب لك أمور أنت مسؤول عنها .

(٦) الخادر : الأسد في خدره : وليوث الأسد : أقواها . وعثر : مكان تكثر فيه السباع . والغيل : الشجر الملتف ، أي أجمة الأسد . يريد أن النبي ﷺ أهيب عنده من أسد خادر ..

(٧) يستضاء به : يهتدى به ، لأنه سيف هداية لا سيف ضلال ، والمهند : السيف المصنوع بالهند . وهو أفضل السيوف وأجودها .

(٨) الفتية : العصبة ، والجماعة . وقائلهم : لعله قصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وزولوا : انتقلوا من مكة إلى المدينة . ويعني بذلك الهجرة .

(٩) زالوا : هاجروا ، فما زال : فما هاجر . والأنكاس : جمع نِكْس ، وهو الضعيف . والكُشُفُ : الذين ينهزمون ولا يثبتون ، وأصله من الأكشف ، وهو الذي لا ترس معه في الحرب . والميل : جمع الأميل ، وهو الذي لا يحسن ركوب الخيل أو غير ذلك ، أي : أنه لا يثبت على السرج . والمعازيل : جمع معزول ، وهو من لا سلاح له . وهنا إشارة إلى أن المسلمين هاجروا أقوياء لا ضعفاء ، هاجروا عن رغبة لا من رهبة أو خوف .

ثُمَّ العرانينِ أبطـــالٌ لَبُــوسُهُمُ   مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ في الْهَيْجَـا سَرَابيـلُ[1]
لا يفرحــونَ إذَا نَــالَتْ رِمَــاحُهُمُ   قَوْماً ، وَلَيْسُوا مَجَـازِيعاً إذَا نِيلُـوا[2]
لا يقــعُ الطَّعْنُ إلاَّ في نُحُــورِهِمُ   وَمَـا لَهُمْ عَنْ حِيـاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيـلُ[3]

(أ)

مناسبة النص :

كعب بن زهير بن أبي سلمي أحد فحول المخضرمين والمخضرمون : جمع مخضرم وهو من أدرك العهدين الجاهلي والإسلامي ، ويمتاز بتلك النفحة الدينية الذي تلمس بها ارتياحا شديداً إلي نعيم الآخرة وكانت لكعب مكانته العالية والحظ المرموق في الشعر والشهرة في الجاهلية ثم في الإسلام ، ولما ظهر الإسلام تأخر كعب عن الدخول فيه ، وعندما انتشر الإسلام دعاه رسول الله ﷺ إلي الإسلام فلم يحبه بالرغم من أن " بجير بن زهير" أخا كعب استجاب لنداء الإسلام فأسلم ثم نصح له أن يسلم لأن الإسلام هو الدين الحق الذي يأخذ أهلهَ بالفضيلة ويربيهم علي الخير ، ويربط ما بينهم بالمعروف ، ويدعوهم إلي البر . وينهاهم عن الشر وينشد للإنسانية كلها السعادة ، ويجعل المسلم مع المسلم كالبنيان يشدُّ بضعه بعضاً ....

(١) العرانين : جمع العرنين ، وهي الأنوف ، وتكون أطراف الأنوف . والشم : جمع الأشم ، وهو المرتفع ، وهنا كناية عن الإباء والأنفة . واللبوس : اللباس . ومن نسج داود : من صنع داود عليه السلام . والهيجا : الحرب . والسرابيل : الدورع .

(٢) نالت : أصابت . والمجازيع : جمع الجزاع ، وهو شديد الخوف . ونيلوا : أصيبوا .

(٣) حياض الموت : موارد الهلاك . وتهليل : جبن وفرار ، وتسمى هذه القصيدة « بالبردة » لأن الرسول ﷺ خلع بردته عليه .

نتيجة لذلك غضب كعب علي أخيه وكفر بهذا الدين ورمي بجيراً بالعته، واتهم محمداً بالاختلاق وأرسل إليه شعراً وفيه يقول (من البحر الطويل): [١]

مَن مبلغ عنّي بجيراً رسالة فهل لك فيما قلتَ بالخيف هلْ لكا
شربتَ مع المأمون كأساً رَوية فأنهلك المأمون منها وعلّكا
وخالفت أسباب الهدى واتّبعتَه علي أي شيءٍ ويبَ غيركَ دلكا
علي خُلُقٍ لم تُلف أماً ولا أباً عليه ولم تُدرك عليه أخاً لكا
فإن أنت لم تفعل فلستُ بآسفٍ ولا قائلٍ إمّا عثرتَ لعاً لكا

فبلغت أبياته رسول الله ﷺ فقال : "من لقي كعباً فليقتله" وأهدر دمه وكان وقع إهدار النبي لدمه كالصاعقة ، اهتزّت لها نفسه واضرب له قلبه وخارت به قوته وأظلمت عينه ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت وأخذ يعرض نفسه على القبائل لتحميه من هذا الخطر الذي يلاحقه والبلاء الذي ينتظره والهلاك الذي يترقبه ، فلم ترض قبيلة من القبائل أن تَجيره أو تقف إلى جانبه ، وكان أخوه "بجير" قد كتب إليه وقال له النجاة. كما كتب إليه أنه لا يأتيه ﷺ أحد مسلماً إلا قبل منه وأسقط ما كان قبل ذلك ، وهنالك لم يجد بداً من الالتجاء إلى الرسول نفسه والتوسل إليه بحلمه وصفحه وكرمه وعفوه وأدبه .. فتنكر في شكله وتلثم بثوبه ، ودخل عليه المسجد في صلاة الفجر وسلم عليه ثم قال له لو جاء إليك كعب عائذاً لائذاً أتقبل منه ؟ فقال له ﷺ أقبل وحينئذ

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير ج/٣ص٥٨٣ ط/ دار الفكر.

قال له بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنا كعب ثم أعلن إسلامه وأنشد بين يدي النبي ﷺ قصيدة لامية يستسمحه فيها ويعتذر إليه ، وقد اهتزَّ الرسول بتلك القصيدة وأعجب بها وخلع عليه بردته التي كانت بمثابة وسام شرف وفخار عظيم وظلت معه البردة طوال حياته ثم باعها ورثة كعب لمعاوية بن أبي سفيان بعشرين ألف درهم ثم بيعت بعد ذلك للمنصور العباسي بأربعين ألفا. وقد توفي كعب عام ٢٤هـ ٦٦٢م

(ب)

نقد وتحليل :

تبلغ عدة القصيدة سبعة وخمسين بيتا ويمكن تقسيمها من حيث الأغراض **ثلاثة أقسام** :

١-مقدمة غزلية كما هو عادة الشعراء الجاهلين وهذا إنما يعني أن الشاعر جري في مقدمته علي طريقة مألوفة عند شعراء الجاهلية فابتدأ بالوله لمحبوبته التي فارقته، فقلبه متبول، مكبول. ثم ثني بعد ذلك بالثناء علي جمالها الفاتن وحسنها البارع، وأنها كانت تكون نعمة الخلة لو أخلصت في ودها أو صدقت في عهدها لكنها ككل امرأة في طبعها الخلف والغدر، وكانت مواعيد عرقوب لها مثلاً حيث أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلا العتاق النجيبات من الإبل ..

٢-وصف الناقة .. انتقل الشاعر بعد ذلك إلي وصف الناقة التي كان يركبها ويظن أنها تبلغه والتي كانت الوشاة تمشي بجنبيها لتشيع في نفسه اليأس من الوصول إلي الغاية أو السلامة من العاقبة .

وأن رسول الله ﷺ سيقتله وذلك لمقالة السوء التي بلغته عنه مع أن العفو مأمول عنده والصفح مرجو منه ..

٣-الاعتذار ومدح رسول الله ﷺ والمهاجرين وقد ذهب إلي حسن التوسل والتذلل فقد توسل بما يتناسب مع الإيمان الذي يمتزج بنفوسهم وأرواحهم فصارت لهم به العزة والكرامة..

وقد وفق الشاعر حتى نال بها عفو الرسول ﷺ وأعتق دمه .!

وفي الأبيات إشارة إلي أن الإسلام قد قويت شوكته ولم يعد هيناً علي أحد من الناس أن يكيد له أو أن يعتدي عليه .

ونلاحظ هنا أن كعباً أستطاع بمجرد انسلاخه من الكفر، وانقياده إلي النبي أن يكون في شعره إسلامي النزعة ، مهذب الأسلوب ، جيد التصوير رائع البيان ، وكأنما كان عريقا في التدين قديماً في الانضواء تحت هذه الراية ، حتى إن القارئ لهذه القصيدة لو تجرد من ذلك السياق التاريخي لها لما خامره شك ، في أن قائلها لم يقلها إلا بعد أن رسخت قدمه ، وامتلأ قلبه واطمأنت نفسه ، وطال عهده ، وصفت روحه وفاض شعوره ! غير أننا إذا عملنا أن كعباً معرق في الشعر ، وانه ابن زهير ابن أبي سلمي سيد شعراء الجاهلية ، قلنا إن الشيء من معدنه لا يستغرب .

وقد استخدم الشاعر ألفاظاً لم تكن مألوفة من قبل علي حقيقتها ومعانيها الأصلية ، كما اكتسب الشعر نوعاً جديداً وهو الهجاء السياسي ، الذي عرف فيما بعد في العصر الأموي كغرض مستقل نتيجة الأحزاب السياسية .

منزلة قصيدة بانت سعاد :

هي من أشهر القصائد الإسلامية وقد طبعت لشهرتها عدة طبعات وشرحت عدة شروح شرحها "ابن هشام" و"ابن دريد" و"التبريزي" و"الباجوري" كما شرحها المستشرق الألماني "فريناخ" بعد أن ترجمها إلي اللاتينية كما شرحها المستشرق الهولندي "ليثه" في ليدن وقد طبعها المستشرق الإيطالي "جويدي" مع شرح "ابن هشام" كما طبعها "نولدكه" الألماني وطبعها "كرانكو" مع شرح "التبريزي" وطبعها وشرحها سواهم كما ترجمت إلي لغات كثيرة ولاقت اهتمام العلماء في الشرق والغرب نظراً لمكانة الممدوح والمادح وقد عارضها كثيرون من شعراء العربية عارض مثل "البوصيري" بقصيدة (زخر المعاد في معارضة بانت سعاد) من البحر البسيط ، ومطلعها :

إلي متي أنت بالذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

وعلى كل حال: فقصيدة بانت سعاد من عيون الشعر في العصر الإسلامي وكان سبباً في الإسهام في فن المعارضات في الشعر العربي.



قصيدة حسان بن ثابت في الدفاع عن رسول الله

النـــص:-

١. عفت ذات الأصـابع فالجـواء	إلى عــذراء منزلها خــلاء
٢. ديــار من بني الحسحاس قفـر	تعفيها الروامـس والسـماء
٣. فدع هذا ولكن من طريــــف	يؤرقني إذا ذهـب العشــاء
٤. لشعثــاء التــي قــد تيمــتــه	فليس لقلـبه منهـا شفــاء
٥. كأن خبيئة مــن بيــت رأس	يكون مزاجها عســل ومـاء
٦. عدمنا خيلنــا إن لــم تروهـــا	تثير النقع موعـدها كـــداء
٧. يبارين الأسنة مصغيـــات	على أكـتافها الأسـل الظمـاء
٨. تظــل جيادنــا متمطـــرات	تلطمهـــن بالخمـر النسـاء
٩. فإمـا تعرضوا عنا اعتمـرنـا	وكان الفتـح وانكشف الغطـاء
١٠. وإلا فاصـبروا لجلاء يــوم	يعين الله فيــه مـــن يشـاء
١١. شهدت به فقوموا صدقــوه	فقلتـم لا نقــوم ولانشـــاء
١٢. وجبريل أمين الله فينـــا	وروح القدس ليس له كفـاء
١٣. آلا أبلغ أبا سفيــان عنــي	أنت مجـوف نخــب هــواء
١٤. بأن سيوفنا تركتك عبـــدأ	وعبدا الدار سادتهـا الإمــاء
١٥. هجوت محمداً فأجبت عنــه	وعنـد الله فـــي ذاك الجزاء
١٦. أتهجوه ولسـت لــه بكـفء	فشـركما لخيركمـا الفـداء
١٧. فمن يهجو رسـول الله منكم	ويمدحــه وينصــره ســواء

١٨. فإن أبي ووالده وعرضـــــي لعــرض محمـــد منكم وقـــاء
١٩. لساني صارم لا عيب فيــــه وبحــري لا تكـــدره الــــدلاء

نبذة عن: حسان

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حزام الخزرجي وأمه (الفريعـــة) بنت خنيس الخزرجية ولد بيثرب وعاش ما يزيد على مائة عام عـــاش نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام وقد توفي سنة (٥٤) هـــ تردد حسان قبيل الإسلام على بلاط الغساسنة والمناذرة وكـــان قومـــه فـــي الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس ومن ثم احتدم الصراع الشعري بينه وبين الشاعرين (قيس بن الخطيم ، و(أبي قيس الأسلت) .

- وقد عرض حســـان شعره على النابغة في سوق عكاظ فقـــدَّم عليـــه الأعشى فأثر موجدته : فلما دخل في الإسلام أصبح شاعر الرســـول أو شاعر الدعوة الإسلامية وأستحق من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الـدعاء والتأييد وقد أهداه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بستانا" كما أهداه (سيرين) أخت زوجته (مارية) فولدت عبدا لرحمن بن حسان هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حزام الخزرجي وأمـــه (الفريعـــة) بنـــت خنيس الخزرجية ولد بيثرب وعاش ما يزيد على مائة عام عاش نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام وقد توفي سنة (٥٤) هـــ تردد حسان قبيل الإسلام على بلاط الغساسنة والمناذرة وكان قومه فـــي الحـــروب

التي نشببت بينهم وبين الأوس ومن ثم احتدم الصراع الشعري بينه وبين الشاعرين (قيس بن الخطيم ، و(أبي قيس الأسلت) .

-وقد عرض حسان شعره على النابغة في سوق عكاظ فقدم عليه الأعشى فأثر موجدته : فلما دخل في الإسلام أصبح شاعر الرسول أو شاعر الدعوة الإسلامية وأستحق من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الدعاء والتأييد وقد أهداه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بستانا ، كما أهداه (سيرين) أخت زوجته (مارية) ، فولدت عبدا لرحمن بن حسان.

مناسبة القصيدة :-
قالها يوم فتح مكة وقبل يوم الحديبية

الغرض منها :-
الرد على هجاء (النبي صلى الله عليه وآله وسلم) والدفاع عن دين الله ونصرته

مكانة الشاعر الأدبية :
حسان من أشهر الشعراء المخضرمين وصاحب المواقف الخالدة في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله مسلم فقد ورث الشعر عن آبائه فكان بيته أعرق بيت في الشاعرين وقد اجتمع في هذه الوراثة الشعرية بيئة الشاعر وملكاته وكثرة الخصومات الشعرية والمنافسات الدينية والاجتماعية والسياسية التي أشترك فيها .

١ـ عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

عفت : درست / ذات الأصابع ، الجواء ، عذراء : هذه أماكن في بلاد الشام يتردد عليها .

٢ـ ديار من بنى الحساس قفر تعفيها الروامس والسماء

بني الحساس : بني النجار / قفر : خالية / تعفيها : تغطيها /الروامس: الرياح التي ترمس الآثار / السماء : المطر .

(١ - ٢)

۞ أن تلك الديار يتردد عليها ما بين الغساسنة وقومه أصبحت أطلالا" يحن إليها حتى أن الرياح عفتها بالرمال والسماء أسقطت الأمطار عليها فأصبحت خالية من السكان .

٣ـ فدع هذا ولكن من طريف يؤرقني إذا ذهب العشاء

فدع : أترك / طريف : رقيق / يؤرقني : يزعجني / إذا ذهب العشاء : إذا دخل وقت الليل .

۞ ثم انتقل الشاعر من الحديث عن الأطلال إلى الحديث عــن الحـــب والتعلق بمحبوبته بقوله < فدع هذا ولكن من طريف > وهــو أســلوب

انتقالي يريد الشاعر أن ينبه إلى شيء يؤرقه في الليل ويسلب راحته وأن هذا الأمر لطيف حقا" إنه حديث عن شعثاء التي تيمته فتعلق بها قلبه فليس منها شفاء .

٤ـ لشعثاء التي قد تيَّمته فليس لقلبه منها شفاء

لشعثاء : اسم محبوبته / تيمته : علقت بقلبه علقا" شديدا" / شفاء : وقاية وعلاج .

٥ـ كأن خبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

خبيئة : صفة للخمر الجيد / بيت رأس : مكان في الأردن .

(٤ - ٥)

۞ ثم أراد الشاعر أن يصف تعلقه بها صورة امتزاج قلبه بحبها وقال < كأن خبيئة من بيت رأس ..... > أراد أن يصور امتزاج حبها بقلبه بامتزاج تلك الخمر المشهورة عسلها بمائها فكما أنه لا يمكن فصلهما كذلك لا يمكن فصل حبه عن قلبها فهو تشبيه تمثيلي وأوجه الشبه بين الصورتين هو شدة الامتزاج وعدم الفصل .

٦ـ عدمنا خيلنا إذا لم تروها تثير النقع موعدها كداء

النقع : الغبار / كداء : اسم ثنية الجبل وهو أصل مقبرة مكة .

۞ انتقل الشعر نقله عنيفة حينما يدعو على خيله بالهلاك إنها ترى

وهي تحارب العدو وترد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتبذل قصارى جهدها أنما يسجل المكان الذي تم فيه دخول فتح مكة العظيم وهو كداء وهو انتقال عنيف أراد به الشاعر أن ينبه إلى هذا الغرض (المهم) بهذا القسم أو بهذا الدعاء .

٧ــ يبارين الأسنة مصغيات على أكتافها الأسل الظماء

يبارين : يبارزن / الأسنة : أسنة الرماح / مصغيات : متحرقات للطعن / الأسل : الرماح .

❁ قوله (يبارين الأسنة) هي صورة السرعة لخيل كأنها تركض لتسبق أسنة فرسانها وهي مصغيات أو محترفات للطعن وعلى أكتافها الرماح الظمآنة وفي هذا البيت نوع من المجاز حين نسب الظمأ إلى الرماح على سبيل الاستعارة المكنية والبيت عبارة عن صورة رفيعة لسرعة الخيل ومن فوقها وهي تركض لتسبق أسنة فرسانها وهي متحرقات متعطشات للطعن وعلى أكتافها الرماح الظمآنة والإسناد هنا مجاز يوضحه المقام .

٨ــ تظل جيادنا متمطرات تلطمهن بالخمر النساء

متمطرات : مسرعات / تلطمهن : تضربهن / الخمر : جمع خمار .

وفي البيت تطل رائحة الفخر بخيل قومه خاصة

❁ ثم أكمل الشاعر صورة الخيل فقال (تظل جيادنا ٠٠٠) وفيه يكمل

الشاعر وصف الخيل فيقول هي مسرعة تتسابق بعضها البعض (ونساء يلطمهن بالخمر لترجع إلى مواجهة الأعداء ولكن الخيل تظل مسرعة كأنها الرياح وفي إضافة الخيل إلى (نا) المتكلم نشعر برائحة الفخر بخيله وبقومه .

٩ــ فإما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وأنكشف الغطاء

تعرضوا : تتركونا اعتمرنا / الفتح : فتح مكة / أنكشف الغطاء : ظهر دين الله .

۞ يقول إذا تركتمونا سنستعمر وإذا اعتمرنا سيكون الفتح وسيكون إظهارا" وإعلاء" لدين الإسلام على سائر الأديان.

١٠ــ وإلا فاصبروا لجلاء يوم يعين الله فيه من يشاء

۞ وإن لم تتركونا نعتمر فانتظروا إنا منتظرون يوم لقاء جيشا الكفر بجيش الإيمان ونحن على يقين أن الله يعين المؤمنين وينصرهم عليكم

١١ــ وقال الله قد أرسلت عبدا" يقول الحق إن نفع البلاء

عبدا:يقصد به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم/الحق:كلمة تشير إلى معاني الأخلاق والمراد الصدق في كل رسالة /البلاء:المحنة والكلمة من الأضداد ويراد بها الخير والشر.

۞ وقال الله قد أرسلت محمدا وهو عبد من عبادي لأنها صفة عظيمة التي يتصف بها المؤمن وهي العبودية وهذا العبد ينطق بالحق أي الصدق والخير لكم وهذا الحق إشارة إلى قول الخق والى الدين الجديد.

(العبد) إشارة إلى صفة من صفات محمد صلى الله عليه وآلـــه وســـلم وهي العبودية.

١٢ــ شهدت به فقوموا صدقوه   فقلتم لا نقوم ولا نشـــــاء

۞ ثم لم ينتقل الشاعر ليخبر أنه آمنَ بمحمد وبهذا الدين الجديد ويدعوا هؤلاء الأعداء لكي يصدقوه وأن يجيبوا تلك الدعوة ولكن كـــان ردهـــم عليه لا نقوم ولن نشهد .

١٣ــ وجبريل آمين الله فينـــا   وروح القدس ليس له كفاء

أمين : من الأمانة / روح القدس : والمراد بها جبريل والبيت كنايـــة عن الطهارة وهاتان الصفتان تلازمان كل رسول .

۞ ويعود الشاعر ليؤكد على صدق محمد فيشير إلى جبريل أنه قد آمن بمحمد وقد خص جبريل من بين الملائكة لأنه من خواص الملائكة فهو سفير السماء إلى الرسل ونزول جبريل قاطع لكل شك في ادعاء النبوة قاطع كل شك في أن يكون محمد ادعى النبوة وقـــد وصـــف جبريـــل بصفتين تلازمان كل رسول جاء بصفتين همـــا (الأمانـــة والطهـــارة) وهاتان الصفتان قد اتصف بهما جبريل ومن الطبيعي أن تنتقل إلى من سينزل عليه جبريل وهو محمد .

١٤ــ ألا أبلغ أبا سفيان عني   فأنت مجوف نخب هواء

مجوف:فارغ/ نخب:جبان

۞ أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عم الرسول ﷺ وأخوه من الرضاعة كان من الشعراء المطبوعين وكان فـــي جاهليتـــه

يؤذي الرسول ﷺ ويهجوه ثم أسلم حسن إسلامه واعتذر للرســول ﷺ مما فرط منه .

وفي هذا البيت نري الشاعر حسان قد انتقل نقله عنيفة أخــرى وهــي تهديده أبا سفيان عندما واجهه بقوله:آلا أبلغ (أبا سفيان عني) ثم التفــت الشاعر في هذا البيت من ضمير الغائب إلى ضمير المخاطــب فقــال (فأنت مجوف نخب هواء) ونلاحظ هنا في البيت تنبيهان **الأول**: قولــه (آلا) وهي أداة استفتاح وتنبيه والتنبيه **الآخر**: قوله (أنت) وفيه التفــات من الغائب إلى المخاطب وهذا التنبيه إنما هو تنبيه إلى جرم أبي سفيان حينما هجا نبي الإسلام .

١٥ـ بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإماء

۞

أما قوله (بأن سيوفنا تركتك عبدا" ... ففيه إشارة إلى قصة نبي عبدا لدار يوم غزوة أحد لما قتل سيدهم عبدا لدار جعلوا الإماء سادة لتلــك للفئة فكأنه يقول معبرا" له فقد استطعنا بعون الله أن ننتصر وأن نتركك عبدا" لا تستطيع حمل سلاح وأن سادتكم هن نساء (وعبد الدار ســادتها الإماء) .

١٦ـ هجوت محمدا" فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

۞ يقول : هجوت محمد صلى الله عليه وأله وسلم وشتمته وأن اليــوم أدافع عنه وفي ذلك عند الله جزائي وجزائك والفارق ما بين الجزائيين كبير هو الفارق ما بين الجنة والنار .

١٧ــ فأن أبي ووالده وعرضي لــعرض محمد منكم وفـــاء

وفي هذا البيت كناية عن الشرف الذي ينوه به الشاعر

❁ ثم ينتقل الشاعر ليعلن بأنه يدفع محمد بأعزّ ما يملك فقـــال : (إن أبي ووالده....) وفيه إشارة إلى أن الشاعر يفدي النبي محمداً (صـــلى الله عليه وآله وسلم) بالشرف والعرض إنه يفدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأعز ما يملك (الأب والجاه والشرف والعـــرض) فشـــرفه وعرضه لمحمد منكم وقاية !.

١٨ــ لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تـُكـدِّره الدِّلاء

صارم: قاطع وحازم ، لاعيب فيه: تأكيد ، بحري: شعري ، الـــدلاء : كثرة الشعراء !

❁ وأخيراً : لا ينسى الشاعر أن يفخر بنفسه لأن الفخر فـــي دم كـــل عربي فيقول (لساني ....) ولساني ونطقي قاطع حازم ليس به عيـــب وشعري عميق بعيد الغور يستقى منه الدلاء دون تكدره وفي هذا البيت تشبيه حيث شبه شعره بالبحر الواسع العميق الذي لا تضره كثرة الدلاء كما شبه غيره من الشعراء بالدلاء ولا يخفى ما في هذا التشـــبيه مـــن تحقير لهولا ء الشعراء أو الفخر الذي لايفا رق الشاعر العربي ولاسيما شعراء هذا العصر.

قصيدة الحطيئة في الوصف [1]

قال الحطيئة :

وطاوي ثلاثٍ عاصب البطن مرمل ببيداءَ لم يعرف بها ساكن رسما
أخي جفوة فيه من الأنس وحشة يرى البؤس فيها من شراسته نعمى
وأفرد في شعب عجوزاً إزاءها ثلاثة أشباح تخالهمو بُهما
حفاة عراة ، ماغتذوا خبز ملة ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما
رأي شبحا وسط الظلام فراعه فلما رأى ضيفاً تشمَّر واهتما
وقال: هيا رباه ضيف ولا قِري بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما
فقال ابنه لما رآه بحيرة أيا أبت اذبحني ويسِّر لها طعما
ولا تعتذر بالعدم علَّ الذي طرا يظن لنا مالاً فيوسعنا ذما
فروَّى قليلاً ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح فتاهُ فقد همَّا
فبيناهما عنَّت علي البعد عانة قد انتظمت من خلف مسحلها نظما
عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها على أنه منها إلى دمه أظما
فامهلها حتى تروت عطاشها وأرسل فيها من كنانته سهما
فخرت نحوصٌ ذات جحشٍ سمينة قد اكتنزت لحما وقد طبقت شحما
فيابشراه إذ جرَّها نحوَ قومه ويا بشراهم لما رأوا كلمها يدمى
وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم وما غرموا غرما وقد غنموا غنما
وبات أبوهم من بشاشته أبا لضيفهم والأم من بشرها أما

إن وجود هذه القصة العجيبة الرائعة في شعر الحطيئة يرد علي

(1) راجع في الدراسات الأدبية د/ خفاجي والدكتور علي صبح ط ١٩٨٨/١.

من يزعم خلو الشعر العربي من القصص ، فهذه قصة لا ينكر منكر أو يجحد جاحد اتساقها وتسلسل معانيها .. وان لم يطل نفس الشعر فيها ، وهذا ما يطلب تحقيقه في قصص والتئامه في نسج الأخبار وتلاحقه في سرد الأحاديث .

تحليل القصيدة :

موضوعها :

هي عبارة عن وصف لصورة رائعة للكرم العربي ممثلة في عربي فقير جائع هو وأولاده ، يجيد الصيد ، وقد ألمَّ به ضيف فلم يجد ما يقدمه إليه وحار في أمره ورأي ابنه همومه فعزم علي أبيه أن يذبحه فييسر للضيف القرى والطعام ، وفجأة بدا له سرب من حمر الوحش عطاشى تريد الماء فانتظر حتى شربت وارتوت وأرسل فيها سهما من كنانته فاصطاد منها أتانا سمينة ذات ولد ، قدم منها القرى لضيفه والطعام لأولاده .!

أسلوب القصيدة :

أولا : كانِ الحطيئة ، بارع الخيال ، دقيق التصور ، عميق الوصف ، وهو مخضرم وعاش أغلب عصر معاوية ، ومن ثمَّ جاز لنا أن نعُدَّه مقدمة للعصر الأموي ومن أعلامه . وهذه القصيدة الميمية التي وصف فيها أعرابيا فقيراً سمحا كريما محباً للفلوات ، وما ألمَّ به من حيرة حين نزل به ضيف فلم يجد ما يطعمه به ، فهمَّ بذبح ابنه ...

ثانياً: القصيدة من وصفه الذي جمع فيه بين إشراق الديباجة ، وأناقة

النسج والصياغة ، وقوة السبك دون شك.

ثالثاً: أسلوب القصيدة الجزل الشديد الأسر القوي اللفظ يعد من أروع الأساليب الكلاسيكية .
رابعاً: يستخدم الحطيئة شتى ألوان البيان استخداماً جميلاً من مثل الكناية في قوله وطاوي ثلاث – ومن الاستعارة الجميلة في قوله : ثلاثة أشباح ، يريد أطفالا أصابهم الجوع والطوى والهزال مما أصابهم به حتى صاروا كالأشباح ، أحياء ولا يكادون يبصرون – ومن التشبيه في قوله وبات أبوهم من بشاشته أبا للضيف والأم من بشرها أما له أي كالأب والأم – ومن الطباق الجميل في مثل قوله من الأنس وحشة .

أهمية القصيدة :

هي قصة شعرية مؤثرة فيها كل عناصر القصة من الحادثة والحركة والعقدة وحل الأزمة وجانب من الحوار . ومن هذا الطابع القصص تستمد القصيدة أهميتها لندرة القصة الشعرية في شعرنا القديم.

ميزة القصيدة :

أولا : الإنسانية العالية التي تنطوي عليها القصيدة في لقاء الضيف وإكرامه وبذل كل شيء من أجله .
ثانياً : المشهد القصصي المتكامل فيها مما يعد أنموذجاً جميلا في الشعر العربي القديم .

ثالثاً : القصيدة حقاً من القصائد الرفيعة التي نمّاها فكر الحطيئة ، وفدّتها شاعريته الفنية ، وأضفت عليها موهبته الشعرية حللاً من الجمال والحسن والروعة والفن .!

دلالة القصيدة :

هذه القصيدة تدل علي أمرين :

الأول: إن الشعر العربي القديم عرف القصة الشعرية وهذه قضية ينكرها المستشرقون وتلامذتهم .

الآخر: أن الكرم في حياة العربي أصل وطبع وفطرة ، فهو لا يعرف غيره ولا يفكر في سواه .!

حقاً : تملكنا روعة القصيدة ؟ وذلك يظهر لنا من ناحيتين :

الأولي: الناحية البيانية وتبدو لنا في شخصية الشاعر في قصيدة وفى هذا الموقف المميز له وفي هذا التخير الرفيع للألفاظ والصور والأساليب والأخيلة والمعاني .

الأخرى : الناحية القصصية ، لما في القصيدة من عرض قصصي رائع للموضوع بلغ به إلي العقدة (ذروة المشكلة) ثم التفكير في حلول لها ثم المفاجأة بالحل الأخير .

الوحدة العضوية في القصيدة :

تتناول القصيدة موضوعاً واحداً مترابط الأفكار والمعاني والصور والأخيلة والمشاعر .. فمن البيت الأول إلي البيت الرابع: هو وصف لفقر هذا العربي وجوعه هو وزوجته وأولاده . ومن

البيت الخامس إلي التاسع : يتحدث عن ظهور ضيف وسط الظلام وترحيبه به ، واهتمامه بأمره وحيرته فيما يقدمه له من قرى ليس عنده منه شيء ووقوف ابنه مع أبيه في هذه الأزمة الناشئة ، وعرضه علي الأب أن يذبحه ليقدمه قرى لما ضيف خوفا من الذم والتشهير لو لقي الضيف لقاء البخلاء ، ومن البيت العاشر إلي الثالث عشر : يتحدث عن هذه المفاجأة السارة التي بدأ بها حل الأزمة وهي ظهور قطيع من حمر الوحش أمامه كلها عطاش تريد الماء ويتقدمها حمار وحشي ضخم وخلفه باقي القطيع يسير في انتظام – فوقف هذا العربي قريبا منها وأمهلها حتى ارتوت عطاشها ثم أرسل فيها سهما من كنانته فاصطاد منها أتانا سمينة ذات ولد . ومن البيت الرابع عشر إلي السادس عشر : يصف الشاعر ما آلت إليه حاله وحال أسرته الصغيرة من البشر والفرح والبهجة الممتعة بقرى الضيف وأداء حقه وإكرامه .!

هل القصيدة إسلامية ؟ :

أولا : ما في القصيدة من إنسانية رفيعة ومن إهمال الأب لرأى ابنه وعدم الالتفات إليه تجعلنا نقول إن القصيدة متأثرة بالإسلام وآدابه وروحة في المروءة والإيثار .

ثانياً : على أننا لا ننسى أن المبالغة في تصوير الشاعر للكرم وما جاء عنده على لسان الابن قد يشير إلي أن القصيدة متأثرة بالجاهلية فحسب في المنزع والاتجاه ولا ننسي كذلك أن قوله : " وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما " فيه تصوير لهذا العربي بصورة المتردد . وهذه

الصورة أبعد عن الجاهلية ، وذبح الابن عادة قديمة عند جميع الأمم قبل الإسلام قرباناً للآلهة ومنها كان أمر ذبح إسماعيل — عليه وعلى أبيه السلام — قد قضى عليه الإسلام تكريماً للإنسان وللإنسانية واستجابة لشريعة إبراهيم بفداء الله عز وجل لابنه إسماعيل .

إننا نرجح أن القصيدة إسلامية وبخاصة أن الحطيئة بشعره الإسلامي قد ظل متأثراً بالجاهلية وروحها وأفكارها ، ومن ثم جاءت فكرة الابن التي عرضها علي أبيه .

هل القصيدة من البناء المسرحي ؟

يلاحظ القارئ : أن التسلسل في المشاهد والحوار الذي تحتوي عليه القصيدة يقربان الشاعر العربي من المسرح علي نحو ما ، ففي هذه القصيدة أكثر من مشهد جزئي يشارك في بناء المشهد المسرحي العام : ففي البدء مشهد أسرة بدوية جافية معدمة ، وهذا بدء تعريف بالموضوع ، ثم تقوم المشكلة حول إكرام الضيف ومن أين يأتي هذا البدوي بالقرى .. ثم يظهر من ضمير الأزمة فرج جليل . الابن يقترب من أبيه في موقف مسرحي رائع ويعرض عليه أن يذبحه ليكون قرى للضيف وهنا تبلغ الأزمة ذروتها ، ثم يجئ الحل من القدر ، فيظهر سرب من الوحش فيصوب الأب نحو أكبر بقرة وحشية فيه سهامه فتخر صريعة مضرجة بالدماء ويجرها الأب إلى بيته ويطعم منها ضيفة وأولاده .. إن قصيدة الحطيئة هذه بليغة في التصويب المسرحي ، وفي رسم المشهد في ذهن القارئ ، فقد جعل الشاعر القارئ يرتاع ويتأزم ويرتاح ، مع إن القصة بسيطة سهلة ،

ولكنة البناء المسرحي ، والتجربة المسرحية ، وإن كان الشاعر لم يأت بشيء خارج عن البيئة البدوية لا في الشكل ولا في المضمون ، فلم يحل الأزمة بخرافة أو بأسطورة ، أو بمأساة عجيبة كذبح الابن مثلاً ، ولكنه ساق الحدث في صورة واقعية مألوفة ، لم يركب شططاً ولم يخرج عن الواقع [1] ، هذه الفكرة علي أي حال تنظر إلي هيكل القصيدة والبناء الحواري فيها ، ولكننا نعتبرها قصة ، وتحويل القصة إلي مسرحية شيء ممكن بأي وجه ، وسواء قلنا إن الرواية هي محاكاة الواقع ، أو هي تقمص الشخصيات تقمصاً تاماً ، فإن الحوار هو أداة المسرح كما يري توفيق الحكيم ، فهو الذي يعرض الحوادث يخلق الأشخاص ، ويقيم المسرحية من مبدئها إلي ختامها ومنه نعرف قصة المسرحية وما انطوت عليه من حوادث ومواقف ، وهو الذي يعول عليه في تكوين الشخصيات ثم في خلق جو المسرحية .. والحوار هنا هو حوار أشخاص القصة وهو يمهد ولا شك لنقل القصة إلي جو مسرحي مناسب . [2]

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

---

(1) المرجع السابق ومجلة الأدباء العرب – أكتوبر ١٩٧٢ – منذر شعار .

(2) المرجع السابق ص ٦٣ .

قال مالكُ بنُ الرَّيْب التميمي[١] في رثاء نفسه[٢]

(من الطويل)

ألا ليْتَ شِعري هَــلْ أبيتَنَّ ليلـــةً ... بجَنب الغَضَى، أزجي القِلاص النّواجيا[٣]
فليْتَ الغَضَى لمْ يَقْطعِ الركبُ عَرضَهُ ... وليتَ الغَضَى ماشَى الرِّكابَ لياليا[٤]

---

(١) هو من مازن تميم ، وكان فاتكاً . نشأ في بادية بني تميم بالبصرة ، وهو من شعراء الإسلام في أول أيام بني أمية ، اشتهر في أوائل العصر الأموي ، ويروى عنه أنه قطع الطريق مدة . ويقال : إن معاوية بن أبي سفيان استعمل سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان ، فمضى سعيد بجنده في طريق فارس ، فلقيه بها مالك بن الريب المازني ، وكان من أجمل الناس وجهاً ، وأحسنهم ثياباً ، فلما رآه سعيد أعجبه ، وقال له : ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق ؟ وما يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل ؟ قال : يدعوني إليه العجز عن المعالي ومساواة ذي المروءات ومكافأة الإخوان ، قال : فإن أنا أغنيتك واستصحبتك ، أتكفُّ عما كنت تفعل ؟ قال : إي والله أيها الأمير ، أكفّ كفّاً لم يكفَّ أحدٌ أحسن منه ، قال : فاستصحبه ، وأجرى له خمسمائة درهم في كل شهر . وأخباره مع شِظاظ الضّبّيّ وغيره من قطاع الطرق كثيرة . وقد توفي سنة ٦٠ هـ/٦٨٠ م . في مرو ، وهي اليوم مدينة في الاتحاد السوفياتي واسمها ماري ، منها خرج أبو مسلم الخراساني ، فتحها العرب سنة ٦٥١ م . انظر ترجمته في : الشعر والشعراء ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧ . والأغاني ٢٢/٣٠٤ ـ ٣٢٥ . والأمالي للقالي ٣/١٣٥ ـ ٠٣٩ . والأعلام ٥/٢٦١ .

(٢) يقال : إنه ذهب في صحبة سعيد بن عثمان بن عفان ، حينما سار بجنده في طريق فارس ، حتى إذا أناخ الركب في بعض المنازل ، نزل مالك للقيلولة ، ولما هموا بالرحيل أراد أن يلبس خفّه ، فلسعته أفعى كانت قد اندست فيه ، فلما أحس بالموت أنشأ يرثي نفسه . ويقال : مكث مالك بخراسان ، بعد مقتل سعيد ، فقال يذكر مرضه وغربته . ومات في منزله ، وقبره هناك معروف . ويقال : مات في خان ، فرثته الجانُّ لما رأت من غربته ووحدته ، ووضعت الصحيفة التي فيها القصيدة تحت رأسه ... انظر : الأغاني ٢٢/٣٢٣ ـ ٣٢٤ . والأمالي للقالي ٣/١٣٥ .

(٣) الغضى : شجر ينبت في الرمل . وأزجي : أسوق . والقلاص والقلائص والقُلُص والقَلْصان جمع القلوص : الإبل الطويلة القوائم ، وهي الشابة منها أو الباقية على السير . والنواجي : السّراع .

(٤) فليت الغضى لم يقطع الركبُ عرضه : أي ليته طال عليهم الاسترواح إليه والشوق . والركاب : الإبل وجمعها الركائب . وليت الخ : أي ليته طاولهم .

لقد كانَ في أهلِ الغَضَى ، لو دنا الغَضَى ... مـزارٌ ، ولكنَّ الغَضَى ليْسَ دانيـا[1]
ألَمْ تَرَنِي بِعْتُ الضَّلالَةَ بالهُدى ... وأصْبحْتُ في جيشِ ابنِ عفَّانَ غازيا[2]
وأصبحتُ في أرضِ الأعاديّ بعدما ... أراني عن أرضِ الأعاديّ قاصيا

☆ ☆ ☆

لعَمْري لئن غالتْ خُراسانُ هامَتي ... لقد كنتُ عن بابَيْ خراسانَ نائيا[3]
فللّـهِ دَرّي يـوْمَ أترُكُ طـائعـاً ... بَنِيَّ بأعْلى الرَّقْمَتَيْنِ ، ومـاليـا[4]
ودَرُّ الظِّبَاءِ السّانحاتِ عشيّةً ... يُخَبّرْنَ أني هالِكٌ مَن وَرَائيـا[5]
ودَرُّ كَبيرَيَّ اللّذين كِلاهُما ... عليَّ شفيقٌ ، ناصِحٌ ، قد نَهانِيا
ودَرُّ الهوَى من حيثُ يدعو صِحابَهُ ... ودَرُّ لَجاجاتي ، ودَرُّ انْتِهائيا[6]
تذكّرْتُ من يبْكي عليَّ ، فلم أجِدْ ... سِوَى السيْفِ والرّمحِ الرُّدَينيِّ باكيا[7]
وأشْقَرَ خِنْذيذٍ يَجُرّ عِنانَهُ ... إلى الماء ، لم يتْرُكْ لهُ الدهْرُ ساقيا[8]

---

(١) يقول : لو دَنَوْا قدرنا أن نزورهم ، ولكن الغضى ليس يدنو ، وهذا على التلهف .

(٢) جيش ابن عفان : يعني سعيد بن عثمان بن عفان . يقول : بعتُ ما كنتُ فيه من الفتك والضلالة بأن صرتُ في جيشه .

(٣) غاله : أهلكه وأخذه من حيث لا يدري . والهامة : الرأس .

(٤) لله دري : كلمة استحسان استعملها هنا للتحسر . والرقمتان : موضع قرب البصرة ، كان فيه منزل الشاعر . وهنا : تعجّب من نفسه حين اغترب عن ولده وماله .

(٥) الظباء : النساء من أهله ، كنّ قد تشاءمن من سفره . وإما أنه يقصد : الظباء التي سنحت وجاءت من المياسر إلى الميامن ، وهو ما كانت تتيمن به العرب ، وهي كانت خداعة بذلك ، حيث تدبر الشؤم والهلاك .

(٦) وهنا يتهكم بأن مطامعه دفعته إلى الهلاك ، وأن الموت كان انتهاء مطامعه .

(٧) يقول : كنت أحمل السيف والرمح ، فهما خليلان ، وأنا هاهنا غريب فليس أحد يبكي علي غيرهما . والرديني : منسوب إلى ردينة ، وهي امرأة كانت تقوم الرماح .

(٨) وأشقر : أي فرس أشقر ، والخنذيذ : الجواد الكريم الأصل ، الطويل الصلب .

صريعٌ على أيْـدي الرِّجـالِ بقَفْـرَةٍ ... يُسَوُّونَ قَبري ، حيثُ حُمَّ قضائيا[١]

ولَمّـا تراءَتْ عِنْـدَ مَرْوٍ مَنيّتي ... وخَلَّ بها جِسْمِي ، وحانَتْ وَفاتِيا[٢]

أقُـولُ لأصْحـابي ارْفعـوني لأنّني ... يَقرُّ بعَيني أنْ سُهَيْـلُ بَـدَا لِيـا[٣]

فيا صاحبَيْ رَحْلي ! دنا المَوْتُ ، فانزلا ... برابِيَـةٍ ، إنّي مُقيمٌ لياليـا

أقيما عليَّ اليَـوْمَ ، أو بعضَ ليلَـةٍ ... ولا تُعْجِلاني قـد تبيّنَ مـا بِيـا

وقوما ، إذا مـا استُلَّ روحي ، فهيِّئا ... ليَ القبرَ والأكفـانَ ، ثم ابكيـا ليـا

وخُطّـا بـأطْرافِ الأسِنّـةِ مَضْجَعِي ... ورُدّا على عَيْنَيَّ فضْـلَ ردائيـا[٤]

ولا تَحْسُـداني ، بـارك اللهُ فيكمـا ... مِنَ الأرْضِ ذاتِ العَرْضِ أن توسِعا ليا

خُـذاني ، فجُرّاني بِبُرْدي إليكمـا ... فقد كنتُ ، قبلَ اليومِ ، صَعباً قياديا[٥]

فقد كنتُ عطّافاً ، إذا الخيلُ أدْبَرَتْ ... سَريعاً لدى الهَيْجا ، إلى مَن دعانيا[٦]

وقـد كنتُ محموداً لـدى الـزّادِ والقِرَى ... وعنْ شتْمِ إبنِ العمِّ والجـارِ وانِيـا[٧]

وقـد كنتُ صبّاراً على القِرنِ في الوَغى ... ثقيلاً على الأعداءِ ، عضْباً لسانيا[٨]

وطَـوْراً تَراني في ظِـلالٍ ومَجْمَـعٍ ... وطَـوْراً تَراني ، والعِتـاقُ ركابيـا[٩]

---

(١) القفرة : التي ليس بها أحد ولا شيء .

(٢) خل بها جسمي : اختل ، أي اضطراب وهزل .

(٣) يريد أن سهيلاً (نجم) لا يرى بناحية خراسان فقال : ارفعوني لعلّي أراهُ فتقرّ عيني برؤيته لأنه لا يُرى إلاّ في بلده .

(٤) الأسنة : الرماح ، وخطّا بأطراف : أي احفرا .

(٥) بردي : ثوبي .

(٦) الهيجا : الحرب .

(٧) همزة ابن همزة وصل ، ولكنها قطعت لضرورة الشعر .

(٨) القرن : الخصم . والوغى : الحرب . والعضب : السيف القاطع .

(٩) العتاق : جمع العتيق ، وهو الفرس الكريم ، يصف نفسه في السلم بأنه يتمتع بلذة العيش وظلال النعيم ، =

وطَـوْراً تراني في رحىً مُستـــديرةٍ … تُخرّقَ أطْرافَ الرِّمـاحِ ثيـابِيـا [1]
وقُـوما على بئْرِ الشُّبَيْـكِ ، فـأسْمِعـا … بها الوَحْشَ وَالبِيضَ الحسانَ الروَانِيا [2]
بـــــــأنّكُما خلّفتُماني بِقَفْرَةٍ … تُهِيـلُ عليَّ الرّيـحُ فيها السوافِيـا [3]
ولا تَنْسَيـا عَهْـدي ، خليليَّ ، إنّني … تَقَطَّـعُ أوصـالي ، وَتَبْلَى عِظـامِيا [4]
فلنْ يَعْـدمَ الـوالـونَ بيتـاً يُجِنُّني … ولنْ يعـدَمَ الميراثُ منّي المـواليـا [5]
يقولـون : لاتَبْعَـدْ ، وهُم يـدفنـونني … وأيْنَ مكانُ البُعْـدِ إلاّ مَكانِيـا ؟ [6]
غَـداةَ غَـدٍ ، يـالهْفَ نفْسي على غـدٍ … إذا أدْلجـوا عنّي ، وخُلّفتُ ثـاويـا [7]
وأصبـحَ مـالي ، من طَـريفٍ وتـالـدٍ … لِغَيْري وكان المـالُ بـالأمسِ مـاليـا [8]
فيا ليْتَ شعري ، هل تغيّرَتِ الرّحى … رَحى الحرْبِ ، أو أضْحت بِفَلْجٍ كما هيـا [9]
إذا القـوْمَ حلُّوهـا جميعـاً ، وأنـزلـوا … لهـا بَقَراً حُمَّ العيـونِ ، سـواجِيـا [10]

= وأنه كان صاحب رأي إذا التقت الجامع ، وأنه فارس شجاع يمتطي متون الخيل ، إذا مانشبت المعارك أو الحروب .

(١) أراد بالرحى المستديرة : الحرب .

(٢) الشبيك : موضع في بلاد بني مازن . والرواني : الناظرات بعطف وحنان .

(٣) السوافي : ما تحمله الريح من التراب فتذريه . والقفرة : الأرض الخالية .

(٤) الأوصال : المفاصل .

(٥) بيتا يجنني : قبراً يواريني . والمواليا : الأقارب . أي أن لي من أهلي من يرثني .

(٦) لاتبعد : لاتهلك . وكان من عادة العرب أن تقول عند دفن الميت : لاتبعد .

(٧) أدلجوا : ساروا ليلاً ، وثاو : مقيم .

(٨) الطريف : المال المكتسب حديثاً . والتليد : المال الموروث .

(٩) ليت شعري : أي ليتني أعرف أو أشعر أو أعلم . والفلج : موضع .

(١٠) حلوها : نزلوا بها . وحم العيون : سوداء . والحم جمع الحماء وهي السوداء . والسواجي . جمع الساجية وهي العين الساكنة ، ويريد بالبقر : النساء الجميلات .

وعينٌ وقــــدْ كانَ الظّــلامُ يَجنُّهـــا … يَسُفْنَ الخُزامى نَورَها والأقـاحيا [1]

وهلْ تَرَكَ العيسُ المَراقيـلُ بـالضّحى … تَعـاليَهَـا تعلـو المُتونَ القَيـافيـا [2]

إذا عَصَبَ الرُّكْبـــــانُ بينَ عُنيزةٍ … وبُولانَ ، عاجُوا المُنْقِياتِ المَهاريا [3]

ويا ليْتَ شعري هل بكَتْ أُمُّ مـالـكٍ … كما كنتُ لوْ عـالَوْا نَعِيَّـكِ بـاكيـا [4]

إذا مُتُّ فـاعتـادي القُبـورَ ، وسلّمي … على الرَّيمِ ، أُسقيتِ الغَمامَ الغَواديـا [5]

تَرَيْ جَـدَثـاً قـد جرَّتِ الرّيحُ فـوقَـه … غُبـاراً كلـونِ القَسْطَـلانيِّ هـابيـا [6]

رَهينـــــةَ أحْجـــارٍ وتُرْبٍ تضمّنَتْ … قرارَتُهـا منّي العِظـامَ البَـواليـا [7]

فيـــا راكبـــاً إمّـــا عرضتَ فبلِّغَنْ … بني مـالـكٍ والرَّيْبِ أنْ لا تـلاقيـا [8]

وبلِّـــغ أخي عِمران بُردي ومِئزري ، … وبلِّغ عَجوزي اليومَ أنْ لا تـدانيـا [9]

وَسلِّمْ على شيخيَّ منّي كليْهِما ، … وبلِّـغ كَثيراً وابْنَ عمّي وخـــاليـــا

وعطِّـلْ قَلوصي في الرِّكاب ، فـإنّهـا … ستُبرِدُ أكبـــاداً وتُبكي بَـــواكِيـــا

---

(١) وعين : هناك رواية رعين . ويجنها : يخفيها . ويسفن : يشممن . والخزامى : نبت طيب الرائحة . والأقاحي جمع الأقحوان .

(٢) العيس : الإبل . والمراقيل : جمع المرقال ، وهي السريعة : والتعالي : الارتفاع في السير . والمتون : الجهات المرتفعة ، والقيافي : جمع القيفاء ، وهي الأرض الغليظة أي : الصحاري .

(٣) عنيزة : موضع ، وبولان : موضع ، وعصب : اجتمع . وعاجوا : عطفوا . والمنقيات : النياق السمينة . والمهاري : جمع المهرية ، إبل منسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن .

(٤) عالوا : رفعوا ، أي بلغوا ، والمعنى : هل بكت أم مالك ، كما كنت باكياً عليها لو بلغوني نعيها .

(٥) اعتادي القبور : الزميها . والريم : القبر . والغوادي : جمع الغادية ، وهي السحابة الباكرة للمطر .

(٦) القسطلاني : قوس قزح ، وحمرة الشفق . وهو أيضاً غبار الحرب . وهابيا : من هبا الغبار ، إذا انتشر في الجو .

(٧) رهينة أحجار . أي في القبر عليّ التراب والحجارة . والقرارة : بطن الوادي حيث يستقر الماء ، وصيّره مثلاً للقبر وبطنه .

(٨) يروى : والريب : وهي قبيلة .

(٩) البرد : الثوب والمئزر : أي الإزار الذي يشد به .

أقلّبُ طرْفي فوْقَ رَحْلي ، فلا أرى ،   بـهِ من عُيـونِ المُـؤنِسـاتِ مُرَاعِيـا
وبـالرّمـلِ منّي نِسْوَةٌ لـو شهِـدنَني   بكينَ وفـدّيْنَ الطّبيبَ المُـداويـا
فمِنهُنّ أمّي ، وابْنتـاهـا ، وخـالتي   وبـاكيـةٌ أُخرى تَهيجُ البَـواكيـا[1]
ومـا كان عَهْـدُ الرّمْـلِ منّي وأهلِـهِ   ذميماً ، ولا بـالرّمْـلِ وَدّعْتُ قـاليـا[2]

---

(١) وباكية أخرى : يريد زوجته .
(٢) الذميم : المذموم ، ويقال : المبغّض . والقالي : المبغِض .

قال المُقَنَّع الكندي(١)

(من الطويل)

يُعـــاتِبُني في الـــدَّيْن قــومي وإنّما ... تــدايَنْتُ في أشيــاءَ تَكْسِبُهم حمــدا
ألم ترَ قـــــومي كيف أُوْسِرَ مرةً ... وأُعْسِرَ حتى تبلـغَ العُسْرةُ الجَهــدا(٢)
فـما زادني الإقتـــارُ منهم تقرُّبـــاً ... ولا زادني فضـلُ الغِنَى منهمُ بُعْـدَا(٣)
أسُـدُّ بــه مــا قــد أخَلُّـوا وضيَّعُـوا ... ثغورَ حقـوقٍ مـا أطـاقُـوا لهـا سَـدًّا(٤)
وفي جَفْنَـةٍ مـا يُغْلَـقُ البـابُ دونَهـا ... مُكَلَّلَـةٍ لحمـاً مُـدَفَّقَـةٍ ثَرْدا(٥)
وفي فرسٍ نَهْـدٍ عتيـقٍ جعلتُــه ... حِجاباً لبيتيْ ثمّ أَخْدَمتُـه عبـدا(٦)
وإنَ الـــذي بيني وبينَ بني أبي ... وبينَ بني عمّي لمختلفٌ جـــدًّا
أراهم إلى نصري بطَـــاءً ، وإن همُ ... دَعَـوْني إلى نصرٍ أتيتُهمُ شَـــدًّا(٧)

---

(١) هو محمد بن عميرة ، وقيل ابن عمير ، شاعر إسلامي ، جواد معطاء ، لم يكن يردّ سائلاً ، ويبدو من بعض أشعاره أنه كان من شيعة عليّ بن أبي طالب . وسمّي المقنع لأنه كان من أجمل الناس وأطولهم ، فكان إذا نُظر إليه لُقع ، أي أصيب بالعين ، فتقنّع دهره خوفاً من ذلك . وهو من شعراء الحماسة . ذكر البغدادي أنه لم يقف على شيء من شعره عن غير طريق أبي تمام .
انظر ترجمته في الشعر والشعراء : ٧٤٣ . ومعجم الشعراء : ٣٢٢ . والسمط : ٦١٥ . وشرح شواهد المغني ١٠٢/٣ . والوافي بالوفيات ١٧٩/٣ .

(٢) أوسر : أستغني ، واليسر ، واليسار ، والإيسار ، والميسرة : الغنى . والإعسار ، والعُسر ، والعَسرة : الفقر . والجَهد هنا : الغاية ، وتكون أيضاً المشقة .

(٣) الإقتار : الفقر . فضل الغنى : زيادته .

(٤) أخلوا : أفرجوا وأباحوا . والخَلّة : الفُرجة . وكذلك الثغور والثغرة .

(٥) في جفنة ، أي يعاتبني قومي في الدين وفي جفنة . المكللة : التي حفّ حولها باللحم فصار لها كالإكليل . المدفقة : المملوءة التي تسيل . الماء الدافق : السائل .

(٦) النهد : الغليظ الضخم .

(٧) الشّدّ : العدو الشديد .

إذا أكلوا لحمي وفرتُ لحومَهم ... وإنْ يهدِمُوا بيتي بنيتُ لهم مجدا

وإنْ ضيَّعوا غيبي حفِظْتُ غيُوبَهم ... وإنْ هم هَوَوْا غَيّي هَويْتُ لهم رُشْدا[(١)]

وإن زجروا طيراً بنحسٍ تمرُّ بي ... زجرتُ لهم طيراً تمرُّ بهم سَعْدا[(٢)]

ولا أحملُ الحقدَ القديمَ عليهمُ ... وليس رئيسَ القومِ مَنْ يحملُ الحقدا

لهم جُلُّ مالي إن تتابع لي غنىً ... وإنْ قلَّ مالي لم أكلِّفْهُمُ رِفْدَا[(٣)]

وإني لعبدُ الضيفِ مادام نازلاً ... وما شيمةٌ لي غيرُها تشبهُ العبدا[(٤)]

---

(١) ضيعوا غيبي : أفشوا ما أودعتهم من سري وغيبته عن الناس ، أو ضيعوني بظهر الغيب بأن أباحوا عرضي . حفظت عيوبهم ، أي أمسكت عن ذكرها . وفي رواية : غيوبهم .

(٢) ضرب زجر الطير نحساً وسعداً مثلاً لما ينوون به وينوي بهم .

(٣) جُلّ الشيء : معظمه . والرِّفد : العطاء .

(٤) تشبه العبدا : أي تشبه شيمة العبد ، فحذف .

قال سعدُ بن ناشب[1]

(من الطويل)

سأغسلُ عني العارَ بالسيفِ جالباً　　عليَّ قضاءَ اللهِ ما كان جالبَا
وأُذْهَلُ عن داري وأجعلُ هدمَها　　لعرضيَ من باقي المذلّةِ حاجبا[2]
ويصغُرُ في عيني تِلادي إذا انثَنَتْ　　يميني بإدراكِ الذي كنتَ طالبا[3]
فإنْ تهدِموا بالغدرِ داري فإنّها　　تراثُ كريمٍ لا يخافُ العواقبَا
أخي عَزَماتٍ لا يريدُ على الذي　　يَهُمُّ به من مُفْظِعِ الأمرِ صاحبا[4]
إذا هَمَّ لم تَرْدَعْ عزيمةَ همّه　　ولم يأتِ ما يأتي من الأمرِ هائبَا
فيَالَرِزامٍ رشّحوا بي مُقدِّماً　　إلى الموتِ خوّاضاً إليه الكتائبا[5]
إذا هَمَّ ألقى بين عينَيْه عزمَه　　ونكّبَ عن ذكرِ العواقبِ جانبا[6]
ولم يستشرْ في أمرِهِ غيرَ نفسِهِ　　ولم يرضَ إلا قائمَ السيفِ صاحبا[7]

- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي : ٦٧/١ - ٧٤ .

---

(١) - المازني ، من بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم . شاعر إسلاميّ من شعراء العهد الأموي . كان أبوه ناشب أعور ، وذكر ناشب ضمن مردة العرب وشياطينهم ، وكان له شأن في يوم الوقيط الذي وقع في الإسلام بين تميم وبكر بن وائل ، وفيه يقول الشاعر :

وكيف يفيق الدهرَ سعدُ بن ناشب　　وشيطانُه عند الأهِلّة يُصْرَعُ

وسبب الأبيات أنه كان أصاب دماً ، فهدم بلالُ بن أبي بردة داره بالبصرة وحرّقها ، وقيل إن الحجاج هو الذي هدم داره (انظر الشعر والشعراء : ٦٩٦ ، سمط اللآلي : ٧٩٢ - ٧٩٤ ، خزانة الأدب : ١٤٠/٨ - ١٤٥) .

(٢) أذهل : أسلو . من باقي المذلة : أي من الذل الباقي عليّ أثره .

(٣) التلاد : المال القديم ، وكذا التالد والتليد .

(٤) المفظع : الشديد . يقال : فظُع الأمرُ وأفظع : إذا اشتد .

(٥) رزام : حي من بني مازن ، وهم رهطه الأدنون إليه . والمعنى أنه يقدّم ليقيهم بنفسه .

(٦) التنكيب عن الشيء : العدول عنه . جانباً ، نصب على الظرف ، مثل : جلست جانباً ، أيْ ناحية .

(٧) قائم السيف : رأسه ، وأراد به السيف نفسه ، وخصّ القائم لأنه الوُصلة إلى إعماله والضرب به .

نماذج من نصوص الخطابة

في العصر الإسلامي

خُطْبَةُ حَجَّةِ الوداعِ للنّبي ﷺ[1]

الحمد للهِ ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ، ونَسْتَغْفِرُه ونَتُوبُ إِلَيْه ، ونَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شرورِ أَنْفُسِنا وَمِنْ سيِّئاتِ أَعْمالِنا ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فلاَ هَادِيَ لهُ .

وأَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله وَحْدَهُ لاشَرِيكَ لَهُ ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه .
أُوصيكُمْ عِبادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ ، وأَحُثُّكُمْ على طاعتِه ، وأَسْتَفْتِحُ بالذي هُوَ خَيْرٌ .

---

(١) باعث الخطبة : استعد الرسول ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة لأداء فريضة الحج ، وهي حجة الوداع التي لم يحجّ غيرها منذ هاجر إلى المدينة - وإن كان قد حجّ حجتين قبل أن يهاجر - وقيل : إنه مكث تسع سنين لم يحج ثم أذّن في الناس في السنة العاشرة أن رسول ﷺ حاجّ ، وما إن انتشر خبر حج الرسول ﷺ في أنحاء الجزيرة العربية ، حتى تجمعت القبائل ، فقدم المدينة بشرٌ كثير كلّهم يلتمس أن يأتم بالرسول ﷺ ، ويعمل عمله وينال شرف المصاحبة ، وقد بلغ عدد المسلمين يومئذٍ « حوالي مائة ألف » وبدأ ركب الرسول ﷺ يولّي وجهه شطر المسجد الحرام في اليوم الخامس لخمس بقين من ذي القعدة ، وقد حجّ بالناس ، فأراهم مناسكهم وعلّمهم سُنَنَ حجهم ، وخطب خطبته التي بيّن فيها للناس ما بيّن ، وكان النبي يبلّغ عنه بعرفة ربيعة بن أميّة بن خلف لكثرة الناس . وقد صحب معه جميع زوجاته ، وكأنه شعر أن هذه الحجة هي آخر عهده بالحياة الدنيا .
وقد حج المسلمون والمشركون في ذي القعدة في السنة الثامنة للهجرة ، والجدير بالذكر أن البيت العتيق لم يكن قد تخلّص من شوائب الشرك والجاهلية ، هذا ، وقد وقع الحج في السنة التاسعة في ذي الحجة ، فأرسل النبي ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه إلى مكة أميراً على الحجّ بعد أن علّمه المناسك ، وأمره بالوقوف على عرفة وعلى جَمْع - ثم نزلت سورة براءة بعد سفر أبي بكر رضي الله عنه إلى مكة بالحجيج فبعث بها النبي ﷺ مع عليّ رضي الله عنه ، وأمره إذا خطب أبو بكر رضي الله عنه وفرغ من خطبته ، قام فقرأ على الناس سورة براءة ، ونبذ إلى المشركين عهدهم ، وقال : لا يجتمع مسلم ومشرك على هذا الموقف بعد عامهم هذا ، يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعدَ عامهم هذا ﴾ « سورة التوبة ، آية ٢٨ » . وقد أنزل على الرسول ﷺ في يوم عرفة : ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينَكُم ، وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً ﴾ « سورة المائدة آية ٣ » . وكان الرسول ﷺ واقفاً بعرفة على ناقته العضباء . انظر : الإمام مسلم ، الجامع الصحيح ٤ : ٣٩ وما بعدها . والسيرة النبوية ٦٠١/٢ - ٦٠٦ . وإبراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ٣١٧/١ . وانظر دراسة تحليلية لهذه الخطبة : « خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع » . للدكتور هاشم مناع .

أمّا بعدُ : أيُّها الناسُ اسْمَعُوا مِنّي أُبيِّنْ لكُمْ ، فإنّي لا أدْري ، لعلّي لا ألْقاكُم بعْدَ عامي هَذا[1] ، في مَوْقِفي[2] هذا . أيُّها الناس : إنّ دِماءَكُم وأموالَكُم حرامٌ عليكم إلى أنْ تلقَوْا ربّكُم . كحرمةِ يومِكُم[3] هذا في شَهْرِكُمْ هَذا[4] في بَلَدِكُمْ هَذا[5] .

ألا هَلْ بلّغْتُ ؟ اللّهُم اشْهَدْ ! .

فمَنْ كانَتْ عِنْدَهُ أمَانَةٌ فلْيُؤدِّهَا إلى الذي ائتَمَنَهُ عليْهَا ، وإنّ ربا الجاهليّةِ مَوْضُوعٌ[6] ، وإنّ أوّلَ ربًا أبْدأُ بهِ رِبا عمّي العباسِ بن عبْدِ المُطّلب ، وإنّ دِماءَ الجاهليّةِ مَوْضوعَةٌ[7] ، وإنّ أوّلَ دمٍ نَبْدَأُ بهِ دمُ عامِرِ بنِ ربيعَةَ بنِ الحارثِ بن عبْدِ المُطّلب[8] ، وإنّ مآثِرَ[9] الجاهليّةِ مَوْضُوعَةٌ ، غيْرَ السِّدانَةِ والسِّقايَةِ[10] ، والعَمْدُ قَوَدٌ[11] ، وشِبْهُ العَمْدِ : ما قُتِلَ بالعصَا والحَجَرِ ، وفيهِ مائَةُ بَعِيرٍ ، فمَنْ زادَ فهُوَ مِنْ أهْلِ الجَاهليّةِ .

أيُّها النّاسُ : إنّ الشّيْطانَ قدْ يَئِسَ أنْ يُعْبَدَ في أرْضِكُم هذه ، ولكِنّه قدْ رضِيَ أنْ يُطاعَ فيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمّا تَحْقِرُونَ مِنْ أعْمَالِكُم .

---

(١) أي العام العاشر .

(٢) موقفي هذا : أي في عرفة .

(٣) يومكم هذا : يوم النحر .

(٤) شهركم هذا : ذو الحجة .

(٥) بلدكم هذا : مكة المكرمة .

(٦) موضوع : ساقط ، يقال : وضعت عنه الدَّيْن والجزية ونحوهما ، إذا أسقطته .

(٧) موضوعة : ساقطة وباطلة .

(٨) عامر بن ربيعة : ابن ابن عم الرسول ﷺ كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هُذَيْلٌ ، وقد أبطل الطلب به في الإسلام ، ولم يجعل لربيعة في ذلك تبعة ، أي : لم يجعل لهم حقاً في المطالبة .

(٩) المآثر : كل ماهو قديم متوارث .

(١٠) السدانة : خدمة الكعبة ، وهي بفتح السين وكسرها ، وكانت السدانة واللواء لبني عبد الدار في الجاهلية ، فأقرها الرسول ﷺ في الإسلام . والسقاية : ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء .

(١١) العمد : القتل المتعمد . وحكمه : القود ، وهو قتل القاتل بالقتيل .

أيُّها النّاسُ : ﴿إنما النَّسِيءُ[1] زيادةٌ في الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الذينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً ويُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُوَاطِئوا[2] عِدَّةَ مَا حرَّمَ اللهُ ، فَيُحِلُّوا مَا حرَّمَ الله﴾[3] . إنَّ الزَّمانَ قَدِ اسْتَدارَ كَهَيْئَتِهِ يوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرْضَ . وإنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عشَرَ شَهْراً في كِتَابِ الله[4] يوْمَ خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ ، مِنْهَا أرْبَعَةٌ حُرُمٌ : ثَلاثَةٌ مُتَوالِياتٌ ، وواحِدٌ فَرْدٌ : ذُو القَعْدَةِ ، وذُو الحِجَّةِ ، والمُحَرَّمُ ، ورَجَبُ الذي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَان .

ألا هَلْ بلَّغْتُ ؟ اللّهُمَّ اشْهَد !

أيُّها النَّاسُ : إنَّ لِنِسَائِكُم عليْكُمْ حَقّاً ، ولكُمْ عليهِنَّ حَقٌّ ، لكُم عليْهِنَّ ألا يُوطِئْنَ[5] فُرُشَكُم غيْرَكُم ، ولاَ يُدْخِلْنَ أحداً تَكْرَهُونَهُ بُيُوتَكُم إلاّ بإذْنِكُم ، ولاَ يأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ[6] ، فإنْ فَعَلْنَ فإنَّ اللهَ قدْ أذِنَ لكُم أنْ تَعضُلُوهُنَّ[7] ، وتَهْجُرُوهنَّ في

---

(1) النسيء : التأخير ، تقول : نسأتَ الشيء ، فهو منسوء : إذا أخرته .

(2) ليواطئوا : ليوافقوا . (3) سورة التوبة : ٣٧ .

(4) في كتاب الله : في اللوح المحفوظ .

(5) ألا يوطئن فرشكم غيركم : أي ألا يأذنّ لأحد ممن تكرهون دخوله عليهن . وليس وطء الفراش كناية عن الزنا ، لأنه حرام مع كل أحد تكرهونه أم لا ، ولأنه لو كان المراد كذلك لكانت عقوبتهن الرجم دون الضرب ، مع أنه عليه السلام قال : « فإن فعلن ذلك » أي الإيطاء المذكور « فاضربوهن ضرباً غير مبرح » أي : غير جارح ، وغير شديد ولا شاق . (الإمام مسلم ، الجامع الصحيح ٤١/٤) . والإيطاء هنا بمعنى الجلوس في الفراش ... والله أعلم . تقول : وطئ المرأة يطؤها : نكحها ، ووطئ أو وطئنا العدوّ بالخيل : دسناهم . ولا تقول : وطئت المرأةُ الرجلَ . ويقال : إنه يراد بذلك أن لا يأذن لأحد من الرجال أن يدخل فيتحدث إليهن ، لأن الحديث من الرجال إلى النساء من عادات العرب ، لا يرون ذلك عيباً ولا يعدونه ريبة .

(6) فاحشة مبينة : أي ظاهرة فحشاً وقبحاً .

(7) تعضلوهن : تضيقوا عليهن .

المَضَاجِعِ[1] ، وتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّح[2] ، فإن انْتَهَيْنَ وأَطَعْنَكُم[3] فعَلَيْكُم رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ . وإنّما النِّساءُ عِنْدَكُم عَوَانٍ[4] ، لا يَمْلِكْنَ لأنْفُسِهِنَّ شَيْئاً[5] ، أخَذْتُمُوهنَّ بِأمَانَةِ اللهِ ، واسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ ، فاتّقوا اللهَ في النِّساء ، واسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْراً[6] .

ألا هَلْ بلّغتُ ؟ اللّهُمَّ اشْهَد !

أيُّها النّاسُ : إنّما المُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ ، ولا يَحِلُّ لامْرِئٍ مُسْلِمٍ مالُ أخيهِ إلّا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ .

ألا هَلْ بلّغتُ ؟ اللّهُمَّ اشْهَد !

فلا تَرْجِعُنَّ بعْدِي كُفّاراً يضْرِبُ بَعْضُكَم رِقابَ بعْضٍ ، فإنّي قدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ ما إنْ أخَذْتُمْ به لَمْ تَضِلُّوا بعْدَهُ : كِتابَ اللهِ[7] .

ألا هَلْ بلّغتُ ؟ اللّهُمَّ اشْهَد !

أيُّها النّاسُ : إنّ ربَّكُم واحِدٌ ، وإنّ أباكُم واحِدٌ ، كُلُّكُم لآدمَ وآدمُ مِنْ تُرابٍ . أكْرَمُكُم عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ ، إنّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ ، ولَيْسَ لعَرَبِيٍّ على عَجَمِيٍّ فضْلٌ إلّا بالتَّقْوى .

ألا هَلْ بلّغتُ ؟ اللّهُمَّ اشْهَد !

---

(١) تهجروهن في المضاجع : أي فلا تدخلوهن تحت اللحف وتباشروهن فيكون كناية عن الجماع .
(٢) غير مبرح : غير شديد ولا شاق .
(٣) وأطعنكم : أي في ترك النشوز .
(٤) العواني والعانيات : جمع عانية (والمذكر : العاني ، والجمع : العناة) وهي الأسيرة ، أي هن عندكم بمنزلة الأسرى .
(٥) لا يملكن لأنفسهن شيئاً : كناية عن الضعف .
(٦) الاستيصاء هنا : قبول الوصية ، أي : أوصيكم بهن خيراً فاقبلوا وصيتي فيهن .
(٧) يروى : « كتاب الله وسنة نبيه » .

قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث . والولد للفراش(١) وللعاهر الحجر (٢) من ادَّعى لغير أبيه أو تولَّى غير مُواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل (٣) . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ".

تعليق وتوضيح :

الخطبة موعظة رائعة ، يستهلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه أتم نعمته علي الناس بإرساله إليهم كي يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة ، وليدخلوا في الرعاية الإلهية ، فلا يعملوا عملاً بدونه . وليجتمعوا علي هدي الله وتقواه ، والرسول في كل ذلك يستوحي القرآن وآياته ، وهي بمثابة منارات في موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضئ به كلامه ، وأحيانا ينتقل في سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلي تشريعات يتمُّ بها قيام هذا المجتمع الإسلامي ويسود علي كل ما حوله ، وواضح أن الرسول ﷺ لم يكد يسلّم بالحمد لله والشهادة والوصية بالتقوى حتى انتقل يبين طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها الدين الحنيف حدوداً بين حياة العرب في الجاهلية وحياتهم في الإسلام ، فقد

---

(١) الولد للفراش: أي لصاحب الفراش وهو الزوج .

(٢) للعاهر الحجر: أي لها الخيبة والحرمان وقيل: لها الرجم

(٣) أي لايقبل منهم شيء، وأصل العدل: أن يقتل الرجل بالرجل: وقيل الفدية. والصرف: أن ينصرف عن الدم إلى أخذ الدية . وقيل التوبة .

كانوا مفككين متنافرين ، يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهباً للأموال. وجمعهم الإسلام تحت لوائه في جماعة كبري متآخية متناصرة لا يبغي بعضها علي بعض . ولكي يقضي علي كل سبب للحرب بينهم رد دم القتيل إلي الدولة فهي التي تعاقب عليه ، ولكي يستأصل هذا الداء دعا إلي التنازل عن حق الأخذ بالثأر القديم ، وحرم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة . **والرسول** يفتتح في الخطبة أوامر الإسلام ونواهيه بإعلان أن دماء المسلمين وأموالهم حرام ، **وأن علي كل من كانت عنده أمانة أن** يردها علي صاحبها ، وأن علي كل مسلم أن يرعى أخاه في ماله . فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق ، ومن ثم حرم الربا وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر العباس بن عبد المطلب ، فأسقط عن رقاب المدينين له **رباه . وعلي** نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية ، فليس لمسلم أن يثأر لقتيل له ، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . ولم يبق من مآثر الجاهلية شيئاً سوي خدمة الكعبة وسقاية الحجيج ، وأوجب في قتل العمد القود . ولكن الدولة هي التي تقوم به ، وليست القبيلة ، وبذلك قضي الإسلام علي حروبهم الداخلية . وقد جعل في القتل شبه العمد مائة بعير. كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوئام .

ويحذر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرماً للتلاعب بالأشهر الحرم واضعاً تقويماً قمرياً يتألف من اثني عشر شهراً ، منها أربعة حُرُمٌ : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع من شأن المرأة ومعاني علاقاتها الزوجية ، فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفي الطرفين جميعاً يحفظ لها كرامتها كما يحفظ لزوجها نفس الكرامة . داعياً إلي التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق وإحسان .

- ونلاحظ عقيب كل تشريع تكرار قوله ﷺ : " ألا هل بلغت اللهم فاشهد " للتنبيه على أهمية الموضوعات ، بل تنبيهاً على قيمة كل تشريع على حده ، وإبراءً لذمته ﷺ من المسئولية ، ولإقامة الحجة له ﷺ أمام الله ، وبياناً لمهمته ﷺ وهي التبليغ " ما على الرسول إلا البلاغ " (١)
- كما نلاحظ تجنُّب الرسول ﷺ للسجع واللفظ الغريب - وهما من سمات خطابة الرسول - أما تجنبه للسجع فكراهية منه للتشبّه الكهان ، وأما تجنبه للغريب أو التكلف ؛ فلأن الله أمره أن يقول: ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ والحق أن سمات خطابة الرسول ﷺ كثيرة لا تخفي على فطنة القارئ .

* * * * * *

(١) - البيان والتبيين ٣١/٢ - ٣٣ .
السيرة النبوية ٦٠٣/٢ - ٦٠٤ .

خطبة أبى بكر يوم السقيفة :

خلف أبو بكر (1) رسول الله في حكم المسلمين ، فأعزّ الإسلام وجاهد في سبيله جهاد الأبطال المهابين حتى توفى عام 13هـ .

وكان لخبرته بالحياة ونشأته القرشية ، وتأدبه بالأدب الإسلامي ولبلاغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أثر كبير في حكمته وبلاغته .

تعريف : ويوم السقيفة : هو يوم اجتماع العرب في سقيفة بنى ساعدة عقب وفاة الرسول للنظر فيمن يخلفه ، وتنافس في ذلك المهاجرون والأنصار ، حيث انقسموا حول اختيار خليفة رسول الله ﷺ واجتمع الأنصار جميعا في سقيفة سعد بن عبادة سيد الأوس والخزرج - وهى ظلة كانت بالقرب من داره - يريدون انتخاب خليفة لرسول الله منهم ، وكانوا يؤثرون بالخلافة سعد بن عبادة ، وخطبهم سعد مبينا ما للأنصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله وأنه لا ينبغي أن ينازعهم أحد في هذا الأمر ، فرد عليه الأنصار جميعا أوسهم وخزرجهم بقولهم : أصبتَ ووفّقت ، ثم أخذوا يتشاورون ويقول بعضهم لبعض: فان أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فماذا نقول لهم : فاجتمعوا على أن يردوا بقولهم " منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا ، فقال سعد لما سمعهما هذا أول الوهن "

بلغ نبأ هذا الاجتماع كبار الصحابة ، فمضى أبو بكر وعمر وغيرهما إلى السقفية مسرعين ، حتى وصلوا إليها ، وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيَّأه في نفسه فقال له أبو بكر على رسلك ، وكان أبو بكر: رجلا وقورا فيه أناة فتقدم وخطب الناس فذكر تاريخ المهاجرين ومالهم من فضل السبق وتحمل المصاعب في سبيل الإسلام والرسول ثم كر على الأنصار فذكر مآثرهم وأثنى عليهم ولم يترك شيئا مما لهم من المناقب إلا ذكره ثم روى لهم ما أثر

---

(1) ولد أبو بكر في الجاهلية ، وكان أسبق الرجال إسلاما ، وأكثرهم صحبة للرسول وكان رفيقه ﷺ في الغار كما كان هو صاحبه في نشر الدعوة وفي إظهار كلمة الله . وكان أكثرهم بلاءً في سبيل نشر الدين .

عن رسول الله ﷺ من قولة الأئمة من قريش ، ثم قال " فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور " .

النص: بعد أن حمد أبو بكر الله عز وجل وأثنى عليه قال :

" أيها الناس نحن المهاجرين أول الناس إسلاما وأكرمهم أحسابا وأوسطهم دارا وأحسنهم وجوها ، وأكثرهم ولادة في العرب ، وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ (١) فنحن المهاجرين وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفيء (٢) وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش ، فلا تنقموا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله ".(١)

فلما أتمَّ أبو بكر خطابه أخذ الأنصار يتجادلون ، ثم تقدم عمر وأبو عبيدة وكان أبو بكر يرشحهما للخلافة فقالا لأبى بكر ، والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك ، ابسط يدك لنبايعك ، فمدّ عمر يده إليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم المسلمون كافة وبهذا تمت الخلافة لأبى بكر . ووئدت الفتنة في مهدها .

---

(١) التوبة آية / ١٠٠ .

(٢) هو الغنيمة والخراج .

(١) لا تنقموا عليهم . أي لا تحسدوهم .

تحليل وتعليق :

أ- بعد وفاة الرسول الأعظم كان الخلاف حول خلافة رسول الله شديداً ، فالأنصار مع ما بينهم من خصومات جاهلية يريدونها لأنفسهم ، والمهاجرون مع ورعهم وسابقتهم في الدين ونأيهم عن طلب شيء من الدنيا ، يريدونها لهم ولكنهم لا يريدونها لأنها وظيفة دنيوية ، بل لأنها منصب ديني ، يتمكن منه الذي يليه من إعزاز راية الإسلام ونشر مبادئ العقيدة الإسلامية . وفى هذا الموقف يُمتحن أبو بكر امتحاناً شديداً ، فكل كلمة محسوبة عليه ، وكل حرف دليل لإدانة أو تهمة ، ويتبين في هذا الموقف عظمة أبى بكر وجلالته وبُعد فراسته أنه لم يطعن على أحد ، ولم يعب أحداً ولم يطلب لنفسه شيئاً وإن عظمة الموقف وخطر المناسبة لم تحل بينه وبين الجهر بالرأي والنطق بالحق ، وإصابة سواء المفصل ، وإقناع المسلمين بالحجة والبرهان . فماذا قال : حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ﷺ

- ثم بين فضل المهاجرين وسابقتهم في الإسلام ، واستعدادهم لتحمُّل أعباء السيادة وتكاليف الشرف ، مع مالهم من مجد وحسب وما يتصفون به من سماحة وجود وأريحية ومن كثرة عدد ، ومن شدة قرب من الرسول الأعظم بالنسب ، ومع مالهم كذلك من شرف تليد ومفاخر قديمة تقرّ بها العرب . ثم أصاب المحزّ بالاستدلال بالقرآن الكريم حين قدَّمهم

في الذكر على إخوانهم الأنصار .

(ب) ثم عاد إلى الأنصار ، فوصفهم بالأخُوة في الدين وبالشـــركاء فـــي الغنيمة وليس هناك وصف أبلغ من وصفه لهم بالأخوة ، وقد عادل فـــي وصفهم لهم بين الأخوة في الدين والشركة في المال أي في الدنيا تمـــام المعادلة وأبلغها ثم كرر وصفه لهم بأنهم أنصار إخوانهم المهاجرين على الأعداء وذكر فضلهم بقوله : آويتم وواسيتم ، أي آويتم من لا وطن لهـــم وهم المهاجرين ، وواسيتموهم في المحنة والشدائد والخطوب حين عـــز النصر ، ثم دعا الله بأن يتولى الله جزاءهم الحسن .

- ثم عاد إلى تقرير الأمر ، وتوضيح الرأي ، وحل المشكلة بأن يكـــون من المهاجرين الخليفة ، ومن الأنصار وزراؤه وأعوانه وعلل ذلك تعليلا سياسيا بعيد النظرة ، وهو أن العرب لا تخضع ولا تـــدين بالطاعـــة إلا لقريش فخصص الخلافة بأن تكون من بين المهاجرين في قريش ، وليس أحد يستطيع أن ينافس قريشاً في المجد والشرف في العـــرب قاطبـــة .. وحث بعد ذلك الأنصار على قبول هذا الحكـــم ناهيـــاً لهـــم أن يحســـدوا إخوانهم المهاجرين على ما منحهم الله من فضله . وبذلك استقام الرأي ، واتضح وجه الصواب دون أن يسجَّ أبو بكر أحداً ، أو يطعن على قبيل أو يطلب لنفسه شيئاً ، وما أبلغ ما كرر أبو بكر من وصف للأنصار بأنهم إخوان المهاجرين ، فالمسألة إذن لم تتجاوز حد الخلاف بين أسرة واحـــدة أشقاء أصفياء ، وما أكَّده أبو بكر من أن تولِّى أحدُ من الأنصار للأمر بعد

رسول الله سوف يكون له نتائجه بين العرب ، وهم ما اعتادوا أن يقبلــوا رياسة غير قريش عليهم .

إن يوم السقيفة هو يوم البيعة العامة لخليفة رسول الله ، وقد اتّســم هــذا اليوم بمظهر ديمقراطي سليم ، فكان الصحابة وأعلام الإسلام كلهــم قــد اشتركوا في الرأي وانتهوا إلى ما انتهى إليه أبو بكر من أن الخلافة يجب أن تستقر في المهاجرين دون الأنصار وفى قريش خاصــة مــن بــين المهاجرين ، والأنصار لهم في ذلك منزلة الوزراء من الأمراء .

الصور الأدبية في النص :

١- هذه الخطبة تمثل في إيجازها ووضوحها وصدقها وبساطة أســلوبها وجلال مغزاها وروحها : البلاغة في أسمى منازلها ، والفصاحة في أعلى قممها ، فوصف أبى بكر للمهاجرين بالسابقة في الإسلام وصف أصــاب به المحز ، و ما أروع ما وصفهم به من كرم الأحســاب ، و مــا أروع الكناية عن السيادة بقوله "وأوسطهم دارا" والكناية عن الســماحة بقولــه (و أحسنهم وجوها) والكناية عن القوة بقوله (وأكثرهم ولادة في العــرب) لأن الكثرة دليل القوة عن العقل .

٢- أما وصفه الأنصار بأنهم إخوانَ المهاجرين في الدين وشركاؤهم في الغنائم وأنصارهم على الأعداء فهو وصف دقيق بليغ ، وما أبلغ وصفه لهم بقوله :" آويتم" أي ضفتم المهاجرين الخارجين من وطنهم ومالهم ، وقبلتم ان ينزلوا في حمايتكم وفى دياركم وأموالكم ، ثم بقوله "وواسيتم" ،

والمواساة / المشاركة في المحنة والشدة . وهذا من موجز اللفظ بليغه ودقيقه . وحقا كان كذلك الأنصار بالنسبة للمهاجرين .

ومن سمات الخطبة :

أ- صحة الألفاظ واستقامة الأساليب وبلاغتها وقوة المنطق

ب- ترتيب الأفكار وتنسيق الحجج مع الصدق فيها .

جـ- بلوغ الهدف ، وإصابة المحز .

إن كل ذلك من خصائص بلاغة هذا النص الشريف ، ومن تأثير الإسلام والقرآن في الأدب والأدباء .

٣- وروح النص والتأثيرات المختلفة فيه ترشد إلى تأثره بالإسلام والقرآن في بلاغته مما لا داعي إلى الكلام فيه .

****

كما خطب أبو بكر - رضي الله عنه - خطبة تناولت الملوك والفقراء فقال " إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك فرفعَ الناسُ رؤوسهم فقال : مالكم أيها الناس إنكم لطعانون عجلون ، إن من الملوك من إذا ملك زهّده الله فيما عنده ، ورغّبه فيما عند غيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الإشفاق فهو يحسد على القليل ، ويسخط مع الكثير.. لا يستعمل العبرة ولا يسكن إلى الثقة كالدرهم القيسي والسراب الخادع ، جذل الظاهر حزين الباطن ، فإذا وجبتْ نفسه وقضب عمره وضحى ظلُّه حاسبه الله فأشدَّ حسابه وأقلَّ عفوه ، إلا أن الفقراء هم المحرومون .

وخير الملوك من آمن بالله وحكم بكتابه وسنة نبيه ﷺ وأنكم اليوم على خلافة النبوة ومعرض المدبة. وسترون بعدى ملكاً عضودا وملكا عنودا وأمة شفاعا ودما مفاحا . فإن كان للباطل نزوة ولأهل الحق جولة يعفو بها الأثر ، ويموت لها البشر فالزموا المساجد واستشيروا بالقرآن والزموا الطاعة ، ولا تفارقوا الجماعة وليكن الإبرام بعد التشاور أو الصفقة بعد طول التناظر ، إن بلادكم خرسة أن سيُفتح عليكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها (١) .

والخطبة يدور معناها حول معنى الزهد في الدنيا وعدم التطالب عليها فيتناول الملوك ويفسر حالتهم بأنهم بما عندهم من مال وسلطان ليسوا في راحة تامة فيقتلهم السلطان والخوف من ضياعه ويشغل بالهم المال ويخشون عليه من إقلاله ويحبون كثرته متطلعون دائما إلى ما هو أكثر في كل شيء . أما الفقراء أولئك الذين باتوا على الطوى يشكون الفاقة وقلة المال ليسوا محاسبين كما يحاسب الأغنياء ، بل هم أقل حسابا وأيسر عذابا من الملوك . ثم هو يضع الحل لكلا الطرفين بالالتجاء إلى الله والتمسك بسنة رسوله ﷺ

---

(١) د/ زكي عابدين ص/ ٤٥٣ ــ ٤٥٧ ، والنثر الفني وأثر الجاحظ فيه – دكتور عبد الحكيم بلبع ص ٨٨ .

وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه
لأسامة بن زيد وجيشه عندما أرسله إلى أُبْنَى[1] في السنة الحادية عشرة للهجرة

قال :

يا أيُّها النَّاسُ : قِفُوا أُوصِكم بعشرٍ فاحفظُوها عنِّي : لا تَخُونوا ، ولا تَغُلُّوا[2] ، ولا تَغْدِرُوا ، ولا تُمَثِّلُوا ، ولا تَقْتُلُوا طِفْلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأةً ، ولا تَعْقِرُوا[3] نخْلاً ، ولا تحرقُوه ، ولا تَقْطَعُوا شجرةً مثمرةً ، ولا تَذْبَحُوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلاّ لِمأكَلَة ، وسوفَ تَمُرُّونَ بأقوامٍ قدْ فَرَّغُوا أنفُسَهم في الصوامعِ فدَعُوهُم وما فَرَّغُوا أنفسَهُم لهُ . وسوفَ تَقْدَمُونَ على قَوْمٍ يأْتُونَكم بآنيةٍ فيها ألوانُ الطَّعامِ ، فإذَا أكلتُم منها شيئاً بعدَ شيءٍ فاذكروا اسمَ اللهِ عليها ، وتَلْقَوْنَ أقواماً قدْ فَحَصُوا أوساطَ رؤوسِهم[4] ، وتَرَكُوا حولَها مثلَ العصائبِ ، فاخْفِقُوهم[5] بالسَّيْفِ خَفْقاً ، اندفعوا باسم الله .

- تاريخ الطبري ٢١٣/٣ .

---

(١) مكان بالقرب من مؤتة بالشام .

(٢) ولا تغلوا : لا تحقدوا .

(٣) تعقروا : تستأصلوا وتقطعوا .

(٤) أي : كأنهم حلقوا وسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا . والأفاحيص جمع الأفحوص ، وهو مجثم القطا ومبيضها ، سمي بذلك لأنها تفحص الموضع ثم تبيض فيه . انظر : لسان العرب (مادة فحص) .

(٥) اخفقوهم : اضربوهم .

ويتحدث عمر بن الخطاب في خطبةً عن تعمق المسلمين لما في القــرآن الكريم ، وأنَّ عليهم أن يرجوا به ما عند الله ، فقال " أيها الناس إنه أتـــى حين ، وقد خُيِّل إليَّ أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم فإنا كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل وإذ النبي ﷺ بين أظهرنا ، فقد رُفع الوحي . وذهب النبي ﷺ فإنما أعرفكم بما أقول لكم ، ألا فمن أظهر خيراً ظننا به خيراً وأثنينا به عليه ومن أظهــر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه . فدعوا هذه النفوس عن شهواتها فــإنكم إلا تدعوها تنزع بكم إلى شرٌ غاية ، إن هذا الحق ثقيل مريء وأن الباطل خفيف وبيء ، وترك الخطيئة خير من معالجـــة التوبـــة ، ورب نظـــرة زرعت شهوة ،وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً (١)

ومما يؤيد حسٌ عمر اللغوي ونقده للألفاظ ما روى عنه أن سائلاً ســأل عمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين أيُضحي بضبي قال : ماذا عابيك لــو قلت: ضحى بظبي ؟ قال إنها لغة قال: إنقطع العتاب ولا يضحي بشـــيء من الوحش ، ومن نقد عمر بن الخطاب لحسان بن ثابت وهو يتلو بعض الأشعار في المسجد يريد أن يصرفه عن ذلك فقال : أرغاء كرغاء البكر فقال حسان : دعني عنك يا عمر ! فو الله إنك لتعلم لقد كنت أنشد فـــي هذا المسجد من هو خير منك فما يغير على ذلك ! فقال عمر صدقت (٢)

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه – دكتور عبد الحكيم بلبع ص / ٨٩ .

(٢) دراسات في نقد الأدب العربي – دكتور بدوي طبانة ص / ٨٨ ، ٨٢ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِـهِ وَ هُـوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَ دِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ وَ جُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَـةً عَنْـهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمِلَهُ الْبَلَاءُ وَ دُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ وَسِيمَ الْخَسْفَ وَمُنِعَ النَّصَفَ أَلَـا ، وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَاراً وَسِرّاً وَإِعْلَاناً ، وَقُلْتُ لَكُمْ : اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ فَوَاللَّهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِـمْ إِلَّـا ذَلُّـوا فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَـانُ ، فَهَـذَا أَخُو غَامِد قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْـرِيَّ وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَـدْخُلُ عَلَـى الْمَـرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعَاهَـدَةِ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلُبَـهَا وَقَلَائِدَهَا وَرُعُثَهَا مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْـمٌ ، وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ ! فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً .

فَيَا عَجَباً عَجَباً وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنِ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَـى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى يُغَـارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ ، وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ :هَذِهِ صَبَارَّةُ الْقُـرِّ أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ

كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَ الْقُرِّ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَ الْقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللَّهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ ، يَاأَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ! وحُلُومُ الْأَطْفَالِ وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً وَاللَّهِ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً قَاتَلَكُمُ اللَّهُ ، لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً ، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً ، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً ، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِب رَجُلٌ شُجَاعٌ وَ لَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ !

لِلَّهِ أَبُوهُمْ وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً وَأَقْدَمُ فِيهَا مُقَاماً مِنِّي لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ ، وَهَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ .!

مناسبة الخطبة:

أغار سفيان بن عوف الأسدي بجيش من جيوش معاوية على الأنبار، وقتل عامل علي — رضي الله عنه — عليها فنقم على جماعته ، وخرج إليهم ، وأخذ يخاطبهم بخطبته هذه .

وهذه الخطبة من مشاهير خطب الإمام علي ، قد ذكرها كثير من الناس ، ورواها أبو العباس المبرد في الكامل وأسقط من هذه الرواية ألفاظا، وزاد فيها ألفاظا ، وقال في أولها : إنه انتهى إلى الإمام علي — رضي الله عنه — على أن خيلاً وردت الأنبار لمعاوية ، فقتلوا عاملاً له "حسان بن حسان " فخرج مغضباً يجر رداءه حتى أتى النخيلة ، وأتبعه الناس فوق ربوة من

الأرض ، فحمد الله و أثنى عليه و صلى على نبيه ﷺ ثم قال أما بعد : فـــإن الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبة عنه ألبســـه الله الـــذل وســـيما الخسف : قال في شرحه (وسيما الخسف) هكذا حدثونا به وأظنه من قولـــه تعالى: "يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ" ، وقوله: لباس التقوى مأخوذ من قـــول الله سبحانه " قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى" ، وقوله وجنته الحصينة ، الجنة : ما يُجتن به أي يستتر كالدرع ، و تركه رغبة عنه أي زهداً فيه رغبت عن كذا ضد رغبت في كذا.

وديث بالصغار أي أذله من ذلل البعير ، ومديث : مذلل ومنه الديوث الذي لا غيرة له كأنه قد ذلل حتى صار كذلك ، و الصغار الذل والضيم. و القماءة بالمد : مصدر قمـــؤ الرجل قماء وقماءة أي صار قميئا وهو الصغير الذليل فأما قمـــأ بفتح الميم فمعناه سمن . وقوله وضرب على قلبـــه بالإســـهاب : فالإسهاب هاهنا هو ذهاب العقل ، ويمكن أن يكون من الإسهاب الذي هـــو كثرة الكلام كأنه عوقب بأن يكثر كلامه فيما لا فائدة تحته. قوله وأديل الحق منه بتضييع الجهاد : المراد و أديل الحق منه لأجل تضييعه الجهاد فالباء هنا للسببية كقوله تعالى ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ. و النـــصف الإنصـــاف ، وعقـــر دارهم بالضم : أصل دارهم ، والعقر الأصل ومنه العقار للنخل كأنه أصـــل المال و تواكلتم :أي لم يتوله أحد منا و لكن أحال به كل واحد على الآخـــر ومنه رجل وكل أي عاجز يكل أمره إلى غيره ، وكذلك وكله. وتخاذلتم من الخذلان. وشنت عليكم الغارات فرقت نحو إرسال الماء على الوجه دفعة بعد

دفعة. و المسالح جمع مسلحة و هي كالثغر والمرقـب ، والمعاهـدة : ذات العهد وهي الذمية ،

والحجل : الخلخال ، ومن هذا قيل للفرس محجل ، وسمي القيد حجلا ؛ لأنه يكون مكان الخلخال ، ورعثها جمع رعاث بكسر الراء وهو القرط والقـُلب : و هو السوار والاسترجاع قوله إنّا لِلّهِ وَ إنّا إلَيْهِ راجِعُونَ ، و الاسترحام : أن تناشده الرحم ، وانصرفوا وافرين أي تامّين وّفر الشيء نفسُه أي تم فهو وافر ، ووفرتُ الشيءَ متعد أي أتممتُه. و في رواية المبردَ موفورين قال من الوفر أي لم ينل أحد منهم الرزء في بدن أو مال. وفي رواية المبرد أيضـا فتواكلتم و تخاذلتم و ثقل عليكم قولي .

وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا ، قال : أي رميتم به وراء ظهـوركم ، أي لـم تلتفتوا إليه يقال في المثل : لا تجعل حاجتي منك بظهر أي لا تطرحها غير ناظر إليها قال الفرزدق :

تميم بن مر لا تكونن حاجتي بظهر ولا يعيا عليك جوابها

و الكَلْم الجُرح و في رواية المبرد أيضاً : مات من دون هذا أسفا و الأسـف التحسر ، وفي رواية المبرد أيضا من تضافر هؤلاء القوم على بـاطلهم أي من تعاونهم و تظاهرهم و في رواية المبرد أيضا و فشلكم عن حقكم ، الفشل الجبن و النكول عن الشيء ، فقبحا لكم و ترحا : دعاء بأن ينحيهم الله عن الخير و أن يخزيهم و يسوءهم. والغرض الهدف وحمارَّة القيظ بتشـديد الراء شدة حره ، ويسبخ عنا الحر أي يخف ، وفي الحديث: أن عائشة ـــ

رضي الله عنها ــ أكثرت من الدعاء على سارق سرق منها شيئا فقال لها النبي ﷺ لا تسبخي عنه بدعائك ، وصبارة الشتاء بتشديد الراء شدة برده ، والصرّ : شدة البرد ، قال تعالى كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ . وربّات الحجال النساء ، والحِجال جمع حجلة ، وهي بيت يزين بالستور والثياب والأسرة ، والسدم : الحزن والغيظ ، والقيح : ما يكون في القرحة من صديد ، وشحنتم: ملأتم . والنُّغب : جمع نغبة وهي الجرعة ، والتَّهمام بفتح التاء الهمُّ ، وكذلك كل تَـفعال كالتَّرداد والتكرار والتَّجوال إلا التِّبيان والتلقاء فإنهما بالكسر. وأنفاساً : أي جرعة بعد جرعة يقال: أكرع في الإناء نفسين أو ثلاثة. وذرفت على الستين أي زدت ، ورواها المبرد نيفت.

وروى المبرد في آخرها فقام إليه رجل و معه أخوه ، فقال يا أمير المؤمنين، إني وأخي هذا كما قال الله تعالى رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فمرنا بأمرك فوالله لننتهين إليه ولو حال بيننا وبينه جمر الغضا وشوك القتاد فدعا لهما بخير وقال و أين تقعان مما أريد ثم نزل .

بين علي وابن نباته :

ــ هذاالاستطراد بذكر كلام لابن نباتة في الجهاد : واعلم أن التحريض على الجهاد والحض عليه قد قال فيه الناس فأكثروا وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين علي ــ رضي الله عنه ــ فمن جيد ذلك ما قاله ابن نباته الخطيب أيها الناس ، إلى كم تسمعون الذكر فلا تعون وإلى كم تقرعون بالزجر فلا تقلعون كأن أسماعكم تمج ودائع الوعظ ، وكأن قلوبكم بها استكبار عن الحفظ

وعدوكم يعمل في دياركم عمله و يبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله و صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، وندبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه ، وهذه البهائم تناضل عن ذمارها ، وهذه الطير تموت حميةً دون أوكارها بلا كتاب أنزل عليها ، ولا رسول أرسل إليها ، وأنتم أهل العقول والأفهام وأهل الشرائع والأحكام تندُّون من عدوكم نديد الإبل ، وتدرعون له مدارع العجز و الفشل و أنتم و الله أولى بالغزو إليهم وأحرى بالمغار عليهم لأنكم أمناء الله على كتابه والمصدقون بعقابه وثوابه خصكم الله بالنجدة و البأس و جعلكم خير أمة أخرجت للناس فأين حمية الإيمان وأين بصيرة الإيقان وأين الإشفاق من لهب النيران و أين الثقة بضمان الرحمن ، فقد قال الله عزَّ وجل في القرآن بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فاشترط عليكم التقوى والصبر وضمن لكم المعونة و النصر أ فتتهمونه في ضمانه أم تشكون في عدله وإحسانه فسابقوا رحمكم الله إلى الجهاد بقلوب نقية ونفوس أبية وأعمال رضية ووجوه مضية و خذوا بعزائم التشمير ، واكشفوا عن رءوسكم عار التقصير و هبوا نفوسكم لمن هو أملك بها منكم و لا تركنوا إلى الجزع فإنه لا يدفع الموت عنكم ،

" ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَما قُتِلُوا "

فالجهاد الجهاد أيها الموقنون ، والظفر الظفر أيها الصابرون والجنة الجنة أيها الراغبون و النار النار أيها الراهبون ، فإن الجهاد أثبت قواعد الإيمان ، وأوسع أبواب الرضوان وأرفع درجات الجنان وإن من ناصح الله لبين

منزلتين مرغوب فيهما مجمع على تفضيلهما إما السعادة بالظفر في العاجل ، و إما الفوز بالشهادة في الأجل وأكره المنزلتين إليكم أعظمهما نعمة علـيكم فانصروا الله فإن نصره حرز من الهلكات ، " وَلَيَنْصُرَنَّ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ." هذا آخر خطبة ابن نباتة ، فانظر إليها و إلى خطبة علـي بعين الإنصاف تجدها بالنسبة إليها كمخنث بالنسبة إلى فحل أو كسيف مـن رصاص بالإضافة إلى سيف من حديد وانظر ماعليها من أثر التوليد و شين التكلف وفجاجة كثير من الألفاظ أ لا ترى إلى فجاجة قوله كأن أسماعكم تمج ودائع الوعظ ، وكأن قلوبكم بها استكبار عن الحفظ، وكذلك ليس يخفى نزول قوله تندون من عدوكم نديد الإبل وتدرعون له مدارع العجز والفشل. وفيهـا كثير من هذا الجنس إذا تأمله الخبير عرفه ، ومع هذا فهي مسروقة من كلام أمير المؤمنين علي أ لا ترى أن قول علي أما بعد: فإن الجهـاد بـاب مـن أبواب الجنة قد سرقه ابن نباتة ، فقال فإن الجهاد أثبت قواعد الإيمان وأوسع أبواب الرضوان وأرفع درجات الجنان و قول علي " من اجتماع هؤلاء على باطلهم و تفرقكم عن حقكم " سرقة أيضاً ، فقال صرخ بهم الشـيطان إلـى باطله فأجابوه وندبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه و قول علي " قد دعـوتكم إلى قتال هؤلاء القوم " إلى آخره سرقة أيضا ، فقال كم تسمعون الذكر فـلا تعون وتقرعون بالزجر فلا تقلعون ، وقول علي حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان سرقة أيضا ، وقال : "وعدوكم يعمل في دياركم عمله

ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله " وأما باقي خطبة ابن نباته فمسروق من خطب لأمير المؤمنين علي أخرى .

واعلم أني أضرب لك مثلاً تتخذه دستوراً في كلام أمير المؤمنين علي وكلام الكتاب والخطباء بعده كابن نباته والصابي وغيرهما ، انظر نسبة شعر أبـي تمام والبحتري وأبي نواس ومسلم إلى شعر امرئ القيس والنابغة و زهيـر والأعشى هل إذا تأملت أشعار هؤلاء و أشعار هؤلاء تجـد نفسـك حاكمـة بتساوي القبيلين أو بتفضيل أبي نواس و أصحابه عليهم ما أظن أن ذلك مما تقوله أنت ولا قاله غيرك ولا يقوله إلا من لا يعرف علم البيـان ، وماهيـة الفصاحة و كنه البلاغة وفضيلة المطبوع على المصنوع ، ومزيـة المتقـدم على المتأخر ، فإذا أقررت من نفسك بالفرق والفضل وعرفت فضل الفاضل ونقص الناقص فاعلم أن نسبة كلام أمير المؤمنين علي إلى هـؤلاء ! هـذه النسبة بل أظهر؛ لأنك تجد في شعر امرئ القيس وأصحابه مـن التعجـرف والكلام الحوشي واللفظ الغريب المستكره شيئا كثيراً و لا تجد من ذلك فـي كلام أمير المؤمنين علي شيئا وأكثر فساد الكلام ونزوله إنما هو باسـتعمال ذلك. فإن شئت أن تزداد استبصارا فانظر القرآن العزيز و اعلم أن الناس قد اتفقوا على أنه في أعلى طبقات الفصاحة و تأمله تأملا شافياً ، وانظر إلى ما خص به من مزية الفصاحة والبعد عن التقعير والتقعيب و الكلام الوحشـي الغريب و انظر كلام أمير المؤمنين علي فإنك تجـده مشـتقا مـن ألفاظـه ومقتضبا من معانيه ومذاهبه و محذواً به حذوه ومسلوكاً به في منهاجه فهو

وإن لم يكن نظيرا و لا ندا يصلح أن يقال إنه ليس بعده كلام أفصح منه و لا أجزل ولا أعلى ولا أفخم ولا أنبل إلا أن يكون كلام ابن عمه علي وهذا أمر لا يعلمه إلا من ثبتت له قدم راسخة في علم هذه الصناعة ، وليس كل الناس يصلح لانتقاد الجوهر بل ، ولا لانتقاد الذهب و لكل صناعة أهـل و لكـل عمل رجال. ومن خطب ابن نباته التي يحرض فيها علـى الجهـاد ألا وإن الجهاد كنز وفر الله منه أقسامكم وحرز طهر الله به أجسامكم وعز أظهر الله به إسلامكم فإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم فـانفروا رحمكـم الله جميعاً وثبات وشنوا على أعدائكم الغارات ، وتمسكوا بعصم الإقدام ومعاقل الثبات و أخلصوا في جهاد عدوكم حقائق النيات، فإنه والله ماغزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلوا واعلموا أنه لا يصلح الجهاد بغير اجتهاد كما لا يصلح السفر بغيـر زاد فقـدموا مجاهـدة القلوب قبل مشاهدة الحروب ومغالبة الأهواء قبل محاربة الأعداء ، وبادروا بإصلاح السرائر فإنها من أنفس العدد و الذخائر ، واعتاضوا من حياة لا بد من فنائها بالحياة التي لا ريب في بقائها ، وكونوا ممن أطاع الله وشمر في مرضاته وسابقوا بالجهاد إلى تملك جناته فإن للجنة بابـاً حـدوده تطهيـر الأعمال وتشييده إنفاق الأموال وساحته زحف الرجال و طريقـه غمغمـة الأبطال ومفتاحه الثبات في معترك القتال ، ومدخله من مشرعة الصـوارم و النبال. فلينظر الناظر في هذا الكلام فإنه وإن كان قد أخذ مـن صـناعة البديع بنصيب إلا أنه في حضيض الأرض و كلام أمير المؤمنين علي فـي

أوج السماء فإنه لا ينكر لزومه فيه لما لا يلزمه اقتدارا وقوة و كتابة نحو قوله كنز فإنه بإزاء حرز وعز و قوله مشاهدة بإزاء قوله : مجاهدة و مغالبة بإزاء محاربة و حدوده بإزاء تشييده لكن مثله بالقياس إلى كلام أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ كدار مبنية من اللبن و الطين مموهة الجدران بالنقوش و التصاوير مزخرفة بالذهب من فوق الجص و الإسفيداج بالقياس إلى دار مبنية بالصخر الأصم الصلد المسبوك بينه عمد الرصاص و النحاس المذاب و هي مكشوفة غير مموهة و لا مزخرفة فإن بين هاتين الدارين بونا بعيدا و فرقا عظيما و انظر قوله : "ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا " كيف تصيح من بين الخطبة صياحا و تنادي على نفسها نداء فصيحا ، وتعلم سامعها أنها ليست من المعدن الذي خرج باقي الكلام منه ، و لا من الخاطر الذي صدر ذلك السجع عنه و لعمر الله ! لقد جملت الخطبة وحسَّنتها وزانتها ، وما مثلها فيها إلا كآية من الكتاب العزيز يتمثل بها في رسالة أو خطبة ، فإنها تكون كاللؤلؤة المضيئة تزهر وتنير و تقوم بنفسها، و تكتسي الرسالة بها رونقا و تكتسب بها ديباجة. وإذا أردت تحقيق ذلك فانظر إلى السجعة الثانية التي تكلفها ليوازنها بها وهي قوله : " ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلوا فإنك إذا نظرت إليها وجدت عليها من التكلف و الغثاثة ما يقوى عندك صدق ما قلته لك. على أن في كلام ابن نباتة في هذا الفصل ما ليس بجيد ، وهو قوله : "وحرز طهر الله به أجسامكم " فإنه لا يقال في الحرز إنه يطهر الأجسام و لو قال عوض طهر حصن الله به

أجسامكم لكان أليق لكنه أراد أن يقول طهر ليكون بإزاء وفر ، وبإزاء أظهر فأداه حب التقابل إلى ما ليس بجيد غارة سفيان بن عـوف الغامـدي علـى الأنبار فأما أخو غامد الذي وردت خيله الأنبار فهو سفيان بن عـوف بـن المغفل الغامدي و غامد قبيلة من اليمن و هي من الأزد أزد شنوءة و اسـم غامد عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد و سمي غامدا ، لأنه كان بين قومه شر فأصلحه و تغمـدهم بذلك. روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي في كتاب الغـارات عن أبي الكنود قال حدثني سفيان بن عوف الغامدي

قال دعاني معاوية فقال إني باعثك في جيش كثيف ذي أداة و جلادة فالزم لي جانب الفرات حتى تمر بهيت فتقطعها فإن وجدت بها جندا فأغر عليهم و إلا فامض حتى تغير على الأنبار فإن لم تجد بها جندا فامض حتى توغـل فـي المدائن ثم أقبل إلي ، واتق أن تقرب الكوفة و اعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار و أهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة. إن هذه الغارات يا سـفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم ، وتفرح كل من له فينا هوى منهم ، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر ، فاقتل من لقيتـه ممن ليس هو على مثل رأيك ، و أخرب كل ما مررت به من القرى و احرب الأموال فإن حرب الأمـوال شبيه بالقتل و هو أوجع للقلب. قال فخرجت من عنده فعسكرت و قام معاوية في الناس فخطبهم فقال أيها الناس ، انتدبوا مع سفيان بن عوف فإنه وجـه عظيم فيه أجر سريعة فيه أوبتكم إنشاء الله ثم نزل. قال فو الذي لا إله غيره

ما مرت ثالثة حتى خرجت في ستة آلاف ثم لزمت شاطئ الفرات فأغـذذت السير حتى أمر بهيت فبلغهم أني قد غشيتهم فقطعوا الفرات فمررت بها و ما بها عريب كأنها لم تحللْ قط فوطئتها .. وعلمنا إذ رأيناهم أنه ليس لنا طاقة بهم و لا يد فخرج إليهم صاحبنا و قد تفرقنا فلم يلقهم نصفنا و أيـم الله لقـد قاتلناهم فأحسنا قتالهم حتىَ كرهونا ثم نزل صاحبنا وهو يتلو قوله تعـالى " فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا " ثم قال لنا : من كان لا يريد لقاء الله ولا يطيب نفساً بالموت فليخرج عن القرية .

<u>تحليل وتعليق على خطبة الإمام :</u>

انظر كيف تدرج ابن أبي طالب في إثارة شعور سامعيه حتى وصل إلى القمَّةِ فانه أخبرهم بغَزْو الأنْبار أولًا ، ثم بقتل عامله ، وأنَّ ذلك لم يكْف سُفْيان بن عوْف فأغْمد سيوفه في نحور كثيرٍ من رجالهم وأهليهم .

ثم توجه في الفقرة الثانية إلى مكان الحميَّةِ فيهم ، ومثار العزيمة والنخوة من نفس كل عربي كريم ، ألا وهو المرأة ، فإن العرب تبذل أرواحها رخيصة في الذود عنها ، والدفاع عن خِدْرها . فقال : إنهم استباحوا حِماها ، وانصرفوا آمِنين .

وفي الفقرة الثالثة أظهر الدَّهَش والحَيْرَة من تمسك أعدائه بالباطل ومناصرته ، وفَشَل قومه عن الحق وخِذْلانه . ثم بلغ الغيظ منه مبلغه فَعيَّرهم بالجُبن والخَوَر .

هذا مثال من أمثلة الأسلوب الخطابي نكتفي به في هذه العُجَالة ، ونرجو أن نكون قد وُفقنا إلى بيان أسرار البلاغة في الكلام وأنواع أساليبه ، حتى يكون الطالب خبيرًا بأفانين القول ، ومواطن استعمالها وشرائط تأديتها .

خطبة معاوية بن أبي سفيان[1]
(لما قدم المدينة عام الجماعة سنة ٤١ هـ/٦٦١م)

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعدُ ، فإنّي والله ما وليتُها بمحبة علمتُها منكم ، ولا مسرَّةٍ بولايتي ؛ ولكنّي جالدتكم[2] بسيفي هذا مجالدةً ، ولقد رُضْتُ[3] لكم نفسي على عمل ابن أبي قُحافة[4] ، وأردتُها على عمل عُمَرَ ، فنفرتْ من ذلك نفاراً شديداً ؛ وأردتها مثل ثُنيَّات[5] عثمان ، فأبتْ عليَّ ؛ فسلكتَ بها طريقاً لي ولكم فيه منفعةً : مؤاكلةً حسنةً ، ومَشاربةً جميلةً ؛ فإن لم تجدوني خَيْرَكم فإنّي خيرٌ لكم ولايةً ؛ والله لا أحملُ السيفَ على من لا سيفَ له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يَسْتَشْفي به القائلُ بلسانِه ، فقد جعلتُ ذلك له دَبْرَ[6] أذنيّ

---

(١) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصي الأموي ، أبو عبد الرحمن ، أسلم هو وأبوه يوم فتح مكة ، وشهد حنيناً ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، ثم حسن إسلامه ، وكان أحد الكتاب لرسول الله ﷺ وكان رجلاً طويلاً ، أبيض ، جميلاً ، مهيباً ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ينظر إليه فيقول : هذا كسرى العرب ، ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لاتكرهوا إمرة معاوية ، فإنكم لو فقدتموه لرأيتم الرؤوس تندر (تسقط) عن كواهلها . وكان يضرب المثل بحلمه . وقد امتلأت الكتب بذكر الخلافات بينه وبين علي بن أبي طالب وأبنائه ، واستطاع أن يؤسس الدولة الأموية ، توفي سنة ٦٠ هـ/٦٧٩م . انظر ترجمته في : مروج الذهب ٣٦٦/٢ . وما بعدها و٥/٣ وما بعدها . وتاريخ الخلفاء ، ص ١٩٤ ـ ٢٠٥ . وتاريخ مختصر الدول ، ص ١٨٧ ـ ١٩٠ . أما هذه الخطبة ، فقد قدم المدينة عام الجماعة (بعد أن سلم الحسن الخلافة إلى معاوية) وتلقاه رجال من قريش فقالوا : الحمد لله الذي أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، وصعد المنبر ، وخطب هذه الخطبة .

(٢) جالدتكم : ضاربتكم .

(٣) رضت : ذللت .

(٤) يقصد : أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وهو أول الخلفاء .

(٥) الثنيات : جمع ثنية ، الطريق العالي في الجبل ، يريد حكم عثمان .

(٦) دبر أذني : خلفها ، أي أتركه .

وتحت قَدَمي ؛ وإن لم تجدوني أقومَ بحقكم كلّه فاقبلوا مني بعضَه ، فإنْ أتاكم منّي خيرٌ فاقبلوه ، فإن السيلَ إذا زادَ أثرى ، وإذا قلَّ أغنى[1] ؛ وإياكم والفتنةَ ، فإنها تُفْسِدُ المعيشةَ ، وتكدّر النعمةَ . ثم نزل .

ـ العقد الفريد ١٧٠/٤ ـ ١٧١ .

---

(١) أغنى : كفى . وأثرى : أي جعلهم أثرياء .

خطبة زياد بن أبيه[١]

حين قدم البصرة سنة ٤٥ هـ/٦٦٥م (والياً لمعاوية بن أبي سفيان)

(البتراء)[٢]

أما بعدُ فإنّ الجهالَةَ الجَهلاءَ[٣] والضّلالَةَ العمياءَ[٤] ، والغيُّ الُموفِيَ بأَهْلِهِ على النارِ ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتملَ عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام ، يَنْبُتَ فيها الصغيرَ ، ولا يَنْحاشَ عنها الكبير[٥] ، كأنّكم لم تقرؤوا كتابَ الله ، ولم تسمعوا ما أُعَدَّ اللهُ مِنَ

---

(١) زياد بن أبيه : أمير ، من الدهاة ، القادة الفاتحين ، الولاة . من أهل الطائف . اختلفوا في اسم أبيه ، فقيل عُبيد الثقفي وقيل أبو سفيان . ولدته أمه سمية (جارية الحارث بن كلدة الثقفي) في الطائف ، وتبناه عبيد الثقفي (مولى الحارث بن كلدة) وأدرك النبي ﷺ ولم يره ، وأسلم في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، وكان كاتباً للمغيرة بن شعبة ، ثم لأبي موسى الأشعري أيام إمرته على البصرة . ثم ولاّه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إمرة فارس . ولما توفي عليّ امتنع زيادٌ على معاوية ، وتحصن في قلاع فارس . وتبين لمعاوية أنه أخوه من أبيه (أبي سفيان) فكتب إليه بذلك ، فقدم زياد عليه ، وألحقه معاوية بنسبه سنة ٤٤ هـ . فكان عضده الأقوى . وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق ، فلم يزل في ولايته إلى أن توفي سنة ٥٣ هـ/٦٧٣م ، وكانت ولادته سنة ١ هـ/٦٢٢م . قيل فيه : إنه ما رأى الناس أحداً أخطب من زياد . انظر : الأعلام ٥٣/٣ .وانظر : البيان والتبيين ٦/٢ ، ٦١ - ٦٢ .

(٢) مازال خطباء السلف الطيب ، وأهل البيان من التابعين بإحسان يسمون الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد ، وتستفتح بالتجيد : « البتراء » ، ويسمون التي لم توشّح بالقرآن ، وتزيّن بالصلاة على النبي ﷺ : « الشوهاء » . وقال عمران بن حطّان (خطيب وشاعر توفي سنة ٨٤ هـ/٧٠٣م) خطبت عند زياد خطبة ظننت أني لم أقصّر فيها عن غاية ، ولم أدعْ لطاعن علّة ، فررت ببعض المجالس فسمعت شيخاً يقول : هذا الفتى أخطبُ العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن (البيان والتبيين ٦/٢) . قيل خطب زياد خطبة بتراء لم يَحمد الله فيها ، ولم يصل على النبي ﷺ . وقيل : بل قال : الحمد للهَ على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيدَ من نعمه وإكرامه . اللهم كما زدتنا نعماً فألهمنا شكراً (البيان والتبيين ٦٢/٢) .

(٣) أي : شديدة ، مثل ليلة ليلاء .

(٤) الضلالة العمياء : التي لا هدى لها .

(٥) انحاش عن الأمر : نفر منه .

الثّواب الكريم لأهلِ طاعتِه ، والعذابَ الأليم لأهلِ معصيتِه ، في الزمنِ السّرمَديّ[١] الذي لا يزول ، أتكونون كمَنْ طَرَفَتْ عينَهُ الدُّنيا ، وسَدَّت مسامعَهُ الشهواتُ ، واختار الفانيةَ على الباقيةِ ، ولا تذكرون أنّكم أحدثتم في الإسلامِ الحَدَثَ الذي لم تُسبَقوا إليه : مِن تركِكُم الضعيفَ يُقهر ويؤخذُ مالُهُ ، وهذه المواخيرَ المنصوبةَ[٢] ، والضعيفةَ المسلوبةَ في النّهارِ المُبْصِر ، والعددُ غيرُ قليلٍ . ألم تكن منكم نُهاةٌ تَمنعُ الغُواةَ عن دَلَجِ الليل[٣] وغارةِ النّهارِ ؟! قرّبتُم القَرابةَ ، وباعدتم الدّينَ ، تعتذرونَ بغيرِ العُذرِ ، وتغُضّونَ على المختلسِ . أليسَ كلُّ امرئٍ منكم يذُبُّ عن سفيهِه ، صُنْعَ مَن لا يخافُ عاقبةً ولا يرجو مَعاداً . ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السُّفهاءَ ، فلم يَزَلْ بكم ما تَرَوْنَ[٤] من قيامِكم دُونهم حتّى انتهكوا حَرَمَ الإسلام ، ثم أطرقوا وراءَكم كُنُوساً في مَكانسِ الرّيبِ[٥] . حَرامٌ عليَّ الطّعامُ والشرابُ حتّى أُسَوِّيها بالأرض ، هَدْماً وإحراقاً . إنّي رأيتُ آخِرَ هذا الأمرِ لا يصلُحُ إلاّ بما صَلَحَ به أوّلُه : لينٌ في غيرِ ضَعفٍ ، وشدّةٌ في غيرِ عُنفٍ . وإنّي أُقسمُ بالله ، لآخُذَنّ الوليَّ بالمولى[٦] ، والمقيمَ بالظّاعنِ ، والمقبلَ بالمدبرِ ، والمطيعَ بالعاصي ، والصّحيحَ منكم في نفسِه بالسقيمِ ، حتّى يَلقَى الرّجُلُ منكم أخاه فيقول : انْجُ

---

(١) السرمدي : الدائم ، الأبدي .

(٢) المواخير : مجامع أهل الفسق والفساد .

(٣) دلج الليل : السير فيه .

(٤) قيامكم دونهم : دفاعكم عنهم .

(٥) المكانس : جمع مكنس . وهو الموضع الذي يؤوى إليه ، ويختبأ فيه . والكنوس : جمع كانس ، الظبي يدخل في كناسه ، أي : بمأواه . وأطرقوا وراءكم : اقتدوا بكم . يروى عن الشعبي أنه قال : لما خطب زياد خطبته البتراء بالبصرة ونزل ، سمع تلك الليلة أصوات الناس يتحارسون . فقال : ما هنا ؟ قالوا : إن البلد مفتون ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفتيان الفساق . فيقال لها : نادي ثلاثة أصوات ، فإن أجابك أحد . وإلا فلا لوم علينا فيا نصنع » . انظر : جمهرة خطب العرب ٢٧١/٢ .

(٦) الولي : السيد . والمولى : العبد .

سعدُ فقد هلكَ سُعَيْدُ[1] ، أو تستقيم لي قناتُكم[2] . إنَّ كِذْبَةَ المِنبرِ بَلقاءُ مَشْهُورةٌ[3] ، فإذا تعلَّقتم عليَّ بكذبةٍ فقد حلَّتْ لكم معصيتي ، وإذا سمعتموها منِّي فاغتمزوها فيَّ[4] ، واعلموا أنَّ عندي أمثالَها . من نُقِبَ منكم عَلَيْهِ فأنا ضامنٌ لما ذهبَ منه . فإيايَ ودَلَجَ الليلِ ؛ فإنِّي لا أوتَى بمُدْلِجٍ إلا سفكتُ دمَهُ[5] . وقد أجَّلْتكم في ذلك بمقدارِ ما يأتي الخبرُ الكوفةَ ويرجعُ إليكم . وإيايَ ودعْوةَ الجاهليّةِ[6] ؛ فإني لا آخذ داعياً بها إلا قطعتُ لسانَهُ . وقد أحدثْتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثْنا لكلِّ ذنبٍ عقوبةً : فمَنْ غرَّق قوماً غرَّقناه ، ومَن أحرقَ قوماً أحرقناه ، ومن نقَبَ بيتاً نقبنا عن قلْبِه ، ومَن نبشَ قبراً دفنَّاه فيه حيّاً . فكفُّوا عنِّي أيديَكم وألسنتَكم ، أكفُفْ عنكم يدي ولساني . ولا تظْهَرَ على أحدٍ منكم ريبةٌ بخلافِ ما عليه عامَّتُكم[7] إلاَّ ضربتُ عنقَهُ . وقد كانت بيني وبينَ أقوامٍ إحَنٌ فجعلتُ ذلك دَبْرَ أذني[8] وتحتَ قدَمي ، فمَنْ كانَ منكم مُحْسِناً فليَزْدَد إحساناً ، ومن كان منكم مُسيئاً فلينْزِع عن إساءته . إنِّي والله لو علمتُ أنَّ أحدكم قد قتله السُّلُّ من بُغضي لم أكشفْ له قناعاً ، ولم أهتكْ له ستراً ، حتى يُبديَ لي صفحتَهُ[9] ، فإذا فَعَل ذلك لم أناظِرْهُ . فاستأنفوا أمورَكم ، وأرْعُوا على أنفسكم[10] ، فَرُبَّ مَسُوءٍ بقدومنا سنسرُّهُ ، ومسرورٍ بقدومنا سنسوؤُهُ .

---

(١) هذا مثل يضرب في تتابع الشر ، وأصله أن أخوين (سعد وسُعَيد) خرجا في طلب إبل لهما ، فوجدها سعد ، وقتل سعيد .

(٢) القناة : عود الرُمح ، وهنا تشبيه ، أي : حتى تستقيموا .

(٣) البلقاء : الفرس المحجلة ، وتكون مشهورة عن غيرها لارتفاع التحجيل .

(٤) اغتمزوها : أي عدوها من عيوبي ، وأخطائي .

(٥) المدلج : الذي يسير في الليل ، والمقصود الفاتك وغيره .

(٦) دعوى الجاهلية : يريد أنهم يدعون بعضهم بعضاً عند الأمر الحادث الشديد ، أي التناصر بتأثير العصبية .

(٧) أي : تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم .

(٨) دبر أذني : خلفها ، والإحن : الأحقاد .

(٩) صفحة الرجل : عرض وجهه ، والمراد : حتى يجهر بالعداوة .

(١٠) الإرعاء : الإبقاء والرفق .

أيها الناسَ ، إنّا أصبحنا لكم سادةً ، وعنكم ذادةً[1] ، نَسُوسُكم بسلطانِ اللهِ الذي أعطانا ، نذودُ عنكم بفيءِ اللهِ الذي خَوّلنا[2] . فلنا عليكم السّمعُ والطاعةَ فيما أحبَبْنا ، ولكم علينا العدلُ والإنصافُ فيما وَلِّينا . فاستوجِبُوا عدْلنا وفيئَنا بمناصَحتِكم لنا ، واعلموا أني مهما قصّرت عنه فلن أقصّر عن ثلاثٍ : لستُ محتجباً عن طالبِ حاجةٍ منكم ولو أتاني طارقاً بليلٍ ، ولا حابساً عطاءً ولا رزقاً عن إبّانِه[3] ، ولا مُجمّراً لكم بَعْثاً[4] . فادعوا اللهَ بالصّلاحِ لأئمّتكم ؛ فإنهم ساسَتُكم المؤدِّبونَ لكم ، وكهفُكمُ الذي إليه تأوون ، ومتى يصلُحوا تصلُحوا ، ولا تُشْرِبوا قلوبَكم بُغْضَهم فيشتدّ لذلك غيظُكم ، ويطولَ له حزنُكم ، ولا تُدركوا به حاجتَكم ، مع أنّه لو استُجيبَ لكم فيهم لكانَ شراً لكم . أسألُ اللهَ أنْ يُعينَ كُلاً على كلٍّ . وإذا رأيتُموني أُنفذُ فيكم الأمرَ فأنفِذوه على أذلالِه[5] ، وأيْمُ اللهِ إنّ لي فيكم لَصَرْعَى كثيرةً ، فليحذرْ كلُّ امرئٍ منكم أن يكونَ من صَرْعاي[6]

- البيان والتبيين ٦٢/٢ - ٦٥ .
- العقد الفريد ١٩٩/٤ - ٢٠١ .
- صبح الأعشى ٢١٦/١ - ٢١٨ .
- عيون الأخبار م ١ ج ٢٤١/٢ - ٢٤٢ .
- ذيل الأمالي ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

---

(١) ذادة : حماة ، مدافعون .
(٢) الفيء : مال الخراج أو الغنيمة ، وبفيء الله : أي بظله .
(٣) إبانه : أوانه ، ووقته .
(٤) جمر الجند : حبسهم في أرض العدو ولم يقفلهم .
(٥) أي : وجوهه وطرقه ، واحده ذِل بكسر الذال ، وهو ما مهد وذلل من الطريق وأم الله : هذا قسم ،
(٦) أي : يمين الله .

خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي(١)
حين ولي العراق(٢) سنة ٧٥ هـ/٦٩٤م

(صعد الحجاج بن يوسف الثقفي المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على نبيه(٣) ، ثم قال :

---

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي ، أبو محمد ، قائد ، داهية ، سفاك ، خطيب ، ولد (سنة ٤٠ هـ/٦٦٠م) ونشأ في الطائف بالحجاز ، وانتقل إلى الشام فلحق بسلك الشرطة ؛ ثم مازال يظهر حتى قلّده عبد الملك بن مروان أمر عسكره ، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير ، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير ، وقتل عبد الله وفرق جموعه ، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ، ثم أضاف إليها العراق ، والثورة قائمة فيه ، فانصرف إلى بغداد ، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة ، وبنى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة . توفي فيها سنة ٩٥ هـ/٧١٤م . انظر : مروج الذهب ١٣٢/٣ ـ ١٦٤ . والأعلام ١٦٨/٢ .

(٢) لما غلبت الخوارج على البصرة بعث إليهم عبد الملك جيشاً فهزموه ، ثم بعث إليهم آخر فهزموه ، فقال : من للبصرة والخوارج ؟ فقيل له : ليس لهم إلا المهلب بن أبي صفرة ، فأخذوا يقولون : ولى عبد الملك على العراق رجلاً ضعيفاً ، فخرج عبد الملك إلى أصحابه فقال : ويلكم ! من للعراق ؟ فسكت الناس وقام الحجاج ، وقال : أنا لها ، قال : اجلس . فردد عبد الملك قوله مرة ثانية ، وأجابه الحجاج ، وقام الحجاج الثالثة فقال : والله أنا لها ياأمير المؤمنين ، قال : أنت زنبورها فكتب إليه عهده ، وسار بجيش كبير ، ولما دخل القادسية ، أمر جيشه أن يروحوا ، ولبس ثياب السفر ، وتعمم بعمامة ، حتى دخل الكوفة وحده ، فجعل ينادي : الصلاة جامعة ، وما منهم رجل جالس في مجلسه إلا ومعه العشرون والثلاثون وأكثر من ذلك من أهله ، وصعد المنبر متلثماً متنكباً قوسه ، فجلس واضعاً إبهامه على فيه ، فقال بعضهم لبعض : قوموا حتى نحصبه (أي نرميه بالحجارة) ، فقال له البعض : أصلحك الله اكفف عن الرجل حتى نسمع ما يقول ، فمن قائل يقول : حَصِرَ الرجل فما يقدر على الكلام ، ومن قائل يقول : أعرابي ماأبصر حجته ، فلما غصّ المسجد بأهله حسر اللثام عن وجهه ثم قام ، ونحّى العمامة عن رأسه . وخطب . انظر : مروج الذهب ١٣٢/٣ ـ ١٣٤ .

(٣) يقال: إنه ما حمد الله ولا أثنى عليه ، ولا صلى على نبيه . انظر : مروج الذهب ١٣٤/٣ . ويقال : إنه صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خزّ حمراء ، فقال : عليّ بالناس ! فحسبوه وأصحابه خوارج ، فهمّوا به ، حتى إذا أجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه ، ثم بدأ خطبته . انظر : البيان والتبيين ٣٠٨/٢ .

(من الوافر)

أنــا ابنَ جَــلاَ وطَــلاّعَ الثّنــايــا   مَتى أضَــعِ العِامــــةَ تعرفــوني[1]

يا أهل الكوفة :

أمَا والله إني لأحتمِلُ الشرَّ بحمْله ، وأحذُوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإنّي لأرى رؤوساً قد أينعتْ وحان قطافُها ، وإنّي لَصاحِبُها ، وإنّي لأنظُرُ إلى الدّماء تَرَقْرَقُ بين العمائم واللّحَى .

ثم قال :

(من الرجز)

هــذا أوانُ الشّــدّ فــاشتــدّي زِيَمْ   قــد لَفّهــا الليــلُ بسَــوّاقٍ حُطَمْ[2]
ليس براعي إبــــــــلٍ ولا غَنَمْ   ولا بجــــــــزّارٍ على ظَهرِ وَضَمْ[3]

وقال أيضاً :

قــــد لفّهــــا اللّيــــلُ بعَصْلَبيّ   أرْوَعَ خرّاجٍ من الــــــدّوّيّ[4]
مهاجرليس بأعرابيّ

---

(١) ابن رجلا : ابن رجل جلا الأمور وكشف الصعاب . والثنايا : جمع الثنية ، وهي الطريق في الجبل . يريد : أنه قائد شجاع .

(٢) زِيَمْ : اسم فرس أو ناقة . ولفها: جمعها . والحطم : الذي لا يبقى من السير شيئاً .

(٣) الوَضَم : ما يُقطع عليه اللحم .

(٤) العَصْلَبيّ : الشديد الباقي على المشي والعمل . والأروع : الكريم ذو الجسم والجهارة والفضل والسؤدد ، الذكي ، وقيل : هو الجميل الذي يروعك حسنه ، والدوي : المفازة ، الصحراء المتسعة .

إنّي والله ياأهلَ العراقِ ، والشّقاقِ والنّفاقِ ، ومساوئ الأخلاقِ ، ماأُغْمَزُ تَغماز التّين ، ولا يُقعقَعُ لي بالشّنان[1] ، ولقد فُررت عن ذكاءٍ[2] ، ولقد فُتّشتَ عن تجْربةٍ ، وجَرَيْتَ مِن الغايةِ[3] . إنّ أميرَ المؤمنين كبَّ كِنانَته ثم عَجَمَ عيدانَها[4] ، فَوَجَدَني أمَرَّها عوداً ، وأصلبَها عوداً ، فوجّهني إليكم ؛ فبأنّكم طالما أوضعتُم في الفتن[5] ، واضطجعتم في مَراقد الضّلال ، وسننتم سُنَنَ الغيّ . أما والله لألحوَنّكم لحوَ العصا[6] ، ولأعصبَنّكم عصْبَ السَّلَمَةِ[7] ، ولأضربنّكم ضَرْبَ غرائبِ الإبلِ[8] : فبانكم لكأهلِ قريةٍ كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رَغداً منْ كُلّ مكانٍ فكَفرتْ بأنعُم الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوف بما كانوا يصنعون[9] . إنّي والله لا أعِدُ إلاّ وَفيتُ ، ولا أهُمُّ إلاّ أمضيتُ ، ولا أخلُقُ إلا فَريْتُ[10]. فإيّاي وهذه الجماعاتِ ، وقالَ وقيلَ ، وما تقولون ؟ وفيم أنتم وذاك ؟ أما والله لتستقيمُنَّ على طريق الحقّ ، أو لأدعَنّ لكلّ رجلٍ

---

(١) الشنان : جمع شن ، وهو القربة البالية ، وكانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل للسير لتفزع فتسرع .
(٢) فر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف بذلك عمرها . والذكاء : نهاية الشباب وتمام السن .
(٣) كأنه عنى أنه جاوز الغاية . والغاية : قصبة تنصب في الموضع الذي تكون المسابقة إليه ليأخذها السابق .
(٤) الكنانة : جعبة السهام . وعجم عيدانها : نظر أيها أصلب . والمعنى : أنه اختبر أعوانه وأصحابه ، فوجدني أصلبهم ، وأصلحهم وأقوامهم . .
(٥) الإيضاع : السير بين القوم . أي أسرعتم في الشر .
(٦) لحا العصا : قشرها .
(٧) السلمة : واحدة السلم ، وهو شجر ذو شوك يدبغ بورقه وقشره . والسلم : يعسر خرط ورقه لكثرة شوكه ، فتعصب أغصانه ويشد بعضها بعضاً ، ثم يهصرها الخابط إليه ويخبطها بعصاه ، فيتناثر ورقها للماشية .
(٨) إن الإبل إذا وردت الماء فدخل عليها غريبة من غيرها ، ضربت وطردت حتى تخرج عنها .
(٩) وهنا يقتبس من القرآن الكريم ، من سورة النحل ، من آية رقم ١١٢ .
(١٠) خلق الأديم : قدره لما يريد قبل القطع وقاسه ليقطع منه . والفرى : القطع ، وفريت : قطعت .

منكم شُغْلاً في جسده ، وإنَّ أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلّب بن أبي صُفْرة[1]. وإني أقسم بالله لا أجدُ رجلاً تخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلاّ ضربتُ عُنقه ، وأنهبتُ ماله[2] ، وهدمتُ منزلَه .

- البيان والتبيين ٣٠٨/٢ ـ ٣١٠ .
- العقد الفريد ٢٠٨/٤ ـ ٢٠٩ .
- صبح الأعشى ٢١٨/١ ـ ٢٢٠ .
- مروج الذهب ١٣٤/٣ ـ ١٣٥ .

(١) المهلب بن صفرة : أرسله عبد الملك لإخماد ثورة الخوارج في العراق . توفي سنة ٨٢ هـ/٧٠١م .
ص ١٧٤ ـ ١٧٥ . توفي سنة ٨٢ هـ/٧٠١م .
(٢) أي : جعلته نهبا ، يغار عليه .

موقف الإسلام من الأدب والشعر

موقف الإسلام من الأدب والشعر: [1]

لا شك أنك حين تسمعنا ندعو مع الداعين إلى إقامة مذهب إسلامي في الأدب ونقده ستقول: إذا كنتم ستحدثوننا عن موقف الإسلام من هذا ، فليس من حقكم أن تفعلوا كما فعل غيركم ، فتعتمدوا في هذا الأمر الجليل على ما جاء في كتب الأدب من أخبار وأقوال ، ولا على ما ورد في أسفار التاريخ من قصص ومواقف ، بل ليس من حقكم أن تعتمدوا على كتب السير و المغازي والتراجم ، فليس كل ما جاء في الطبري ، و ابن الأثير ، والإصابة ، وأسد الغابة ، والطبقات الكبرى ، ونحوها مقطوع بصحته .

فهذه الكتب على جلالة قدرها لا ترقى إلى مرتبة تجعلها مصدراً من مصادر الدين ولا منهلاً من مناهل الشريعة تؤخذ منه النصوص ، وتبنى عليه الأحكام ، فما بالك بالأغاني والعقد ونحوهما ؟ ؛ لذا فأنتم مطالبون بأن تحددوا لنا موقف الإسلام من الأدب من خلال الكتاب والسنة ..

أولا : ما جاء في مدح الشعر :

١- هذا مسجد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم قد أقيم في جانب من جوانبه منبر مرموق المكان مشهود الموقع ، وقد تحلق حول المنبر الصحابة الكرام الذين ما حظي تاريخ الإنسانية بأتقى منهم قلباً ، ولا أصفى منهم فكراً ، ولا أنأى عن لهو ، ولا أدنى من جد ، وكان على رأسهم رسول الله ﷺ وقد شخصت أبصارهم جميعاً إلى الواقف فوق المنبر ، وشدت أسماعهم إلى ما تلقيه من رائع القول وساحر البيان ، وكان الواقف على المنبر شاعرا يشيد الشعر .. هو حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً

---

(١) راجع نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد د. عبد الرحمن رأفت الباشا ط/٤ ص/١٣ وما بعده .

يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح ، ويقول رسول الله ﷺ:" إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله"

أفتحسب بعد هذا أن شريعة على ظهر الأرض ، أو نظاماً من أنظمة الحكم التي عرفها الناس قد رقت بالأدب إلى مثل هذه المنزلة ، أو أحلته مقاماً يضارع هذا المقام ؟ ... فمجلس الأدب – كما رأيت – يعقد في بيت من بيوت الله ، وشهود المجلس هم الصحابة الكرام وعلى رأسهم الرسول الأعظم ﷺ.. والنبي الكريم ﷺ يبشر بما سيحفُّ الشاعر من التأييد فيقول : " إن الله يؤيد بروح القدس"

ولا يخفى أن روح القدس إنما هو أحد أسماء جبريل عليه السلام ، وإنما اختير من أسمائه هذا الاسم إشارة إلى طهارته ونزاهته عن العيوب ، وهما وصفان ينشدهما الشاعر المسلم ، ويطمح إلى الاتصاف بهما .

أما التأييد الذي سيحفُّ بحسان فإنما يكون بإلهامه طيب القول وإرشاده لما هو الصواب والحق.

وواضح أن سمة الأدب الذي حظي بذلك المقام ، أنه قيل دفاعا عن نبي الإسلام ، وكبتاً لأعداء الله ورسوله . والأدب حين يغدو سلاحا في يد الدعاة ، ويتحول إلى لسان صدق ، يهدى إلى الله عزَّ وجل ويحض على الخير والبر والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، و يغرى بالفضائل ويزيّنها ، وينفر من الرذائل ويقبحها ، إنما يدخل في رحاب الإسلام من أوسع الأبواب ، ويستحق عليه من الله ورسوله الرضا والثواب، لأن يلهم طيب الأقوال والأفعال .

٢– ثم إن الإسلام أحدث تغييراً في وظيفة الأدب ، وتبديلا كبيرا في نظرة الناس إليه ، فهو لم يبقه – كما كان – متعة يستمتع بها الناس في أنديتهم وأسمارهم ، ولا متنفساً ينفِّسون به عن أحزانهم وأشواقهم ، وإنما ارتقى به حتى جعله ضربا من ضروب الجهاد ، وألحقه بفريضة من أجل الفرائض

. فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :"جاهدوا المشركين بأنفسكم ، وأموالكم ، وألسنتكم "[١]

وعن كعب بن مالك أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما أنزل ، فقال النبي ﷺ: " إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النَّبل"[٢]

فالجهاد – كما أوضح نبي الإسلام ﷺ ضروب ، والأدب – ممثلاً في الشعر –واحد منها ، فهناك جهاد بالنفس: حين يجود بها المرء منعتقا من جُبنه ، شارياً بالنفس الفانية نفساً باقية بما عند الله من حسن الثواب .. وهناك جهاد بالمال: حين يبذله المرء في سبيل الله متحديا نوازع الشح في نفسه ، مقرضا هذا المال لله قرضا حسنا يضاعفه له .

وهناك جهاد بالكلمة: يقف إلى جانب الجهاد بالنفس والمال ،ولكن الجهاد بالكلمة أندر ، والحاجة إليه – لندرته – أشد ؛ وذلك لأن الناس جميعاً يملكون نفوساً يمكن أن يجودوا بها إذا صحّت عزائمهم ، وأن لدى كثير منهم مالاً يستطيعون أن يضحوا به إذا سخت نفوسهم ، ولكن سلاح الأدب نادر لا تملكه كل الناس ؛ لأن قوامه الموهبة، والموهوبون قليل !

ثم إن النصوص تشير إلى حقيقة أخرى ، خلاصتها أن من شأن المجتمع – ممثلاً بولي الأمر – أن ينشط للبحث عن الطاقات الفذَّة ، وأن يجنِّدها للقيام بمسئولياتها في الدفاع عن قيم الأمة ومثلها ؛ وفق منهج مدروس يحقق الغاية التي يهدف إليها دون أن يترك أثارا جانبية ضارة في أى مجال من المجالات ، فعن عائشة – رضى الله عنها– أن رسول الله ﷺ قال : " اهجوا قريشاً فإنه أشدّ عليهم من رشق النَّبل" ، فأرسل إلى ابن رواحة

---

(١) فيض القدير : ١٤٣/٣ .

(٢) روى في شرح السنة ، وفى الاستيعاب لابن عبد البر أنه قال : يارسول الله ماذا ترى في الشعر ؟ فقال : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه

فقال : (اهجهم) ، فهجاهم ، فلم يُرضِ ، فأرسل إلى كعب بن مالك ، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت .. فلما دخل حسان قال : قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذَنَبه ، ثم دلع لسانه ، فجعل يحركه ، ثم قال : والذي بعثك بالحق لأفرينّهم فرْى الأديم ، فقال رسول ﷺ: "لا تعْجل فإن أبا بكر أعلم قريشٍ بأنسابها ، وإن لي فيهم نسبا حتى يُخلِّص لك نسبى" ، فأتاه حسان ثم رجع فقال : يا رسول الله قد خلَّص لى نسبك ، والذي بعثك بالحق لأسُلنّك منهم كما تُسل الشعرةُ من العجين .. قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ وسلم يقول :" لقد هجاهم حسان فشفى وأشفى " (١)

ولا ريب في أن ذلك وسام فخار يضعه الإسلام على صدور الأدباء حين يبحث عنهم ولىّ أمر المسلمين كما يبحث الطبيب الحاذق عن الدواء الناجع ، وإنه مسئولية كبرى يلقيها الإسلام على عاتق الأدباء أيضا ، وإشارة واضحة إلى مهمة الأديب الإسلامي في بناء المجتمع .

فإذا عرفنا أن الإسلام والمسلمين في معركة دائمة ، وأن على كل مسلم نصيبه من الجهاد والبناء ، أدركنا قيمة الأدب في حياة المسلمين ، وأهميته في بناء المجتمع المسلم ، وعلى هذا فليس الأدب نافلة في الحياة ، وإنما هو عنصر أساسي من عناصرها الأصيلة الثابتة .

ثم إن هناك حقيقة أخرى هي أن الإسلام في أول عهده كاد يحصر وظيفة الأدب في الذود عن رسول الله ﷺ ، ومناضلة خصومه ، فكانت وظيفته الأولى - كما رأينا من قبل - وظيفة نضالية ، فلما جاء نصر الله والفتح ، وأرسيت قواعد الدولة الإسلامية على أسس ثابتة ، جند المسلمون الأدب للتوجيه والتوعية والتربية ؛ ذلك لأنهم أدركوا ما للكلمة من قدرة رائعة فى المحافظة على جذوة الإيمان مشتعلة في النفوس ، وما لها من أثر فذ في إنارة القلوب ، وتغذية العقول .

(١) صحيح مسلم : الحديث ذو الرقم ٤٥٤٥ .

فقد روى البخاري في صحيحه عن الهيثم بن أبى سنان قال : " رأيت أبا هريرة يوم جمعة يقص قائما فقال في قصصه : إن أخا لكم كان لا يقول الرفث " (يعنى عبد الله بن رواحه) ، فقال :(1)

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف (2)من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع

يبيت يجافى جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

فأبو هريرة يقصُّ يوم الجمعة في المسجد ، والقصُّ في الاصطلاح إنما هو الوعظ ، والإرشاد ، والتذكير ، ومن شأن الوعظ أن تكون فيه آيات من كتاب الله ، ومختارات من حديث رسول الله ﷺ ، ونُبذ من روائع الأخبار ، وقد أضيف إليه عنصر الأدب ممثلا في الشعر .

وكان الذي جمع القرآن والحديث والشعر – على ما بين هذه الثلاثة من تفاوت كبير في القيمة والرفعة – أنها جميعاً إيمانية الغاية ربانية الاتجاه .

وجدير بنا أن نقف وقفة متأنِّية عند نعت أبى هريرة لصاحبه عبد الله بن أبى رواحة ، فلقد قال عنه : إنه كان لا يقول الرفث ، والرفث هو الفاحش من القول فنظافة الأدب وبراءته من فاحش الكلام سمة من سمات الأدب الإسلامي ، أما الأدب الذي يصف العورات ، ويثير الشهوات ، ويستبيح الحرمات فهو أدب غير إسلامي كائنا من كان قائله.

٥– ثم إن النصوص تومئ إلى حقيقة أخرى هي أن المسلمين كانوا يفزعون إلى هذا الأدب في ساعات الشدة فتقوى به القلوب وتهتز له المشاعر فقد روى البخاري في صحيحه أن رجلاً سأل البراء – رضى الله عنه – فقال : يا أبا عُمارة أولَّيتم يوم " حنين " ؟

قال البراء : " أما رسول الله ﷺ لم يولِّ يومئذ .. كان أبو سفيان بن الحارث آخذا بعنان بغلته فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول :

أنا النبيُّ لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

(١) ديوان عبد الله بن رواحه ، جمع الدكتور حسن باجودة : ٩٦

(٢) المعروف : هو الذي تعرفه العين ولا تنكره لظهور نوره

فما رئي من الناس يومئذ أشد منه ، وقد حدث نحو من هذا في يوم " الأحزاب " حين كان المسلمون يحفرون الخندق حول المدينة ، وهم يخشون أن يدهمهم المشركون قبل أن يفرغوا من عملهم ، وكان الجهد والجوع والإعياء قد تألبت عليهم ، وأخذت منهم كل مأخذ ...

في هذا الموقف العصيب كان الرسول الكريم ﷺ وصحابته الأخيار يستروحون بالأدب ، ويتقوون به على مواصلة الجهد ، ويتغلبون بحلاوة جرسه على النصب ، فعن البراء بن عازب – رضى الله عنه – قال :

"رأيت رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم " الأحزاب" ، وقد وارى التراب بياض إبطيه وهو يقول : [١]

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنْزِلَنْ سكينة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إنا إذا قوم بغَوْا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينا

يرفع بها صوته : "أبينا أبينا " [٢]

وواضح أن هذا النشيد نظيف الكلمات ، إيماني المنطلقات إسلامي المضامين ، فهو يشتمل على إشادة بفضل الله الذي هداهم للإسلام ويسر لهم القيام بفرائضه ، وعلى دعاء لله أن يثبت أقدامهم يوم الروع ، وينزل السكينة على قلوبهم في ساعات الفزع ، كما يشتمل على إعلان عن بعض مبادئهم ، فهم لا يريدون أن يبغوا على أحد ، ويأبون أن يبغي عليهم أحد أيضا ، وكل نشيد يتسم بنظافة الكلمة وإسلامية المضمون يمكن له أن يدخل رحاب الأدب الإسلامي من أوسع أبوابه .

٦– ثم إن النصوص تومئ إلى حقيقة أخرى ، هي أن الرسول ﷺ كان يأنس بالشعر ، ويسأل الرواة عنه ، وينصت إليه ويستزيد منه .

---

(١) أي الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٢) هذه الأبيات لابن الأكوع : انظر السيرة لابن هشام في ذكر غزوة الأحزاب .

و لكن حذار أن تظن أن هذا الذي يرضى رسول الله ﷺ هو كـل شـعر وإنما هو شعر ذو صفات محددة ... فقد روى مسلم فـي صحيحـه عـن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : ردفت رسول الله ﷺ يوما فقال :

" هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شيء " ؟ .

قلت : نعم . قال : " هيه " ، فأنشدته بيتا ... فقال : " هيه" ، ثـم أنشـدته بيتا ... فقال : " هيه " ، حتى أنشدته مائة بيت .

وفى رواية : " أنشدته مائة قافية " ، فجعل كلما مررت على بيت منها قـال: " هيه " ثم قال ﷺ : (استسلم شعره) ، فهو كما نعته الرسول ﷺ شـاعر أسلم شعره أو استسلم شعره ، وإن لم يسلم صاحبه .

٧- وهناك حقيقة أخرى هي أن الشعر كان ينشد في مجـالس رسـول الله ﷺ فكان يستمع له مع الصحابة الكرام ، وإن ذلك لم يحدث مرة أو مرتين ، وإنما حدث مرات كثيرة . فقد حدث شريك عن سماك قال :

قلت لجرير بن سمرة : أكنت تجالس رسـول الله ﷺ ؟ قـال : نعـم ، وكان[1] طويل الصمت قليل الضحك ، وكان أصحابه يذكرون عنده الشـعر ، وأشياء من أمورهم ، فيضحكون ، وربما يتبسم ﷺ [2].

٨- ثم إن هناك حقيقة أخرى هي أن الرسول الله ﷺ شهد لـلأدب ممثلا في الشعر بأن بعضه حكمه ، كما شهد للبيان بأنه سحر ، فقـد روى البخاري في صحيحه عن أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : " إن مـن الشعر حكمة " ، كما روى عن عبد الله بن عمر أنه قال : قدم رجلان مـن المشرق فخطبا ، فعجب الناس لبيانهما ، فقال رسول الله ﷺ : " إن مـن البيان لسحرا " .

---

(١) أي الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥ /٨٦ .

٩- وهناك حقيقة أخيرة تومئ إلى أن الرسول ﷺ كان ينوه ببعض الشعر ويرفع بعضه على بعض لعناصر موضوعية توافرت له .. وفي مقدمة هذه العناصر الصدق ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : " أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطلُ   وكل نعيم لا محالة زائل [١]

ثانياً: ما جاء عن رسول الله في ذم الشعر:

(أ) : ما جاء في القرآن : لعلك تقول : إن الله تبارك وتعالى قد أنحى باللائمة على الشعراء ، ووصفهم بصفات نالت منهم أقسى النيل ، وأوجعتهم أشدّ الإيجاع ، وذلك في قوله عزّ من قائل : " والشعراء يتبعهم الغاوون .ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون) [٢] فالآيات الثلاث تشير إشارة واضحة إلى موقف القرآن الكريم من هذا الفن ونظرته إلى أربابه من الشعراء .

وللإجابة عن ذلك يجدر بنا أن نشير إلى أن هذا الكتاب العزيز لا يحارب هذا الفن الأدبي لذاته ، وإنما يحارب فئة خاصة من الشعراء ، وهم أولئك الذين دأبوا على هجاء الرسول ﷺ كما يحارب الغاوين الضالين من الشعراء الذين جعلوا يتغنون بأشعارهم ويذيعونها بين الناس فكان الشعر شغلهم الشاغل الذي امتلأ به قلوبهم .

ثم أضاف إلى ذلك الشعراء الذين كانوا يهيمون وراء أحلامهم الضالة ، ويخضعون لانفعالاتهم الفاسدة ، ولا يميزون بين الحق والباطل ... فيمزّقون بشعرهم الأعراض، ويعرُّون النساء ، ويرمون المحصنات ، ويمدحون من لا يستحق المدح ، ويذمون من لا يستحق الذّم ، وهم فوق ذلك يقولون ما لا يفعلون ، فيشيدون بالجود مع أنهم لا يفعلونه ، ويذمون البخل وهم يأتونه . والدليل أن ذمّ الشعر ليس على إطلاقه أن الله استثنى

---

(١) أخرجه الشيخان

(٢) سورة الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٦ .

من الشعراء فقال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ... ﴾ [1] ، فالشعراء الذين آمنوا بالله ، واهتدوا بهديه ، واتبعوا الرسول الكريم ﷺ ، وساروا على نهجه ، وجندوا طاقاتهم لعمل الصالحات من الأفعال والأقوال ، وذكروا الله سبحانه ، وتحدثوا بآلائه ، قد استثناهم الكتاب الكريم من تلك الحملة التي حملها على الآخرين ، ورفع شأنهم على سائر الشعراء ، ووصفهم بأنهم ﴿آمنوا وعملوا الصالحات ﴾

وموقف القرآن الكريم من الشعر يبدو أكثر وضوحاً لو استعرضنا كل ما عرض من إشارات في القرآن إلى الشعر والشعراء وهى في ستة مواضع:

(١) ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ (الأنبياء /٥).

(٢) ﴿ والشعراء يتّبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون ﴾ (الشعراء ٢٢٤ – ٢٢٧) .

(٣) ﴿ ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ (الصافات ٣٦ – ٣٧) .

(٤) ﴿ فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ (الطور٢٩–٣١) .

(٥) ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴾ (الحاقة ٣٨ – ٤١) .

(٦) ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر

---

(١) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾ (يسن ٦٩ - ٧٠) .
والمتأمل في هذه الآيات يرى أن الآيات لاتصف الشعر بخير أو شر ، وفى سورة الحاقة : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ لم تقل وما هو بشعر بل عبّرت بما يفيد نفى صفة الشعر عن النبي ﷺ أي نفى كونه شاعرا أما الآيات في سورة يسن ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ فإنها - برغم تصريحها بلفظ الشعر - تنص على نفي أن يكون النبي قد تعلم الشعر أي أن يكون شاعرا ، وإنما هو رسول يجيء بشيء غير الشعر ولغرض آخر غير ما يجيء الشعر من أجله وليس من العسير تعليم تأكيد القول بأن الرسول ليس شاعراً ، فمن المعروف أن العرب شأنهم في ذلك شان كثير من الشعوب الأولى في نظرتهم إلى الأدباء والفنانين حيث كانوا يظنون بعقول الشعراء الظنون ، فيعتقدون أحيانا أن بهم ما يشبه الجنون ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ أو أنَّ بهم مساً من الجن أو أن بعض الشياطين يوحون إليهم بما يجرى على ألسنتهم من شعر ، وتلك حقائق لو لصقت بالرسول صفة الشاعر هي جديرة بأن تناقض معنى الرسالة والوحي ، ومن المعروف كذلك أن كثيراً من الشعراء في الجاهلية عرفوا بمسلك خُلقي يتسم بكثير من الإسراف في اللهو والإقبال على الملذات المادية من خمر وميسر وغير ذلك حتى برئت بعض القبائل من مثل هؤلاء الشعراء ، ولعلنا نذكر في هذا المقام قول طرفه بن العبد :

وما زال تِشرابى الخمورَ ولذَّتى ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشـيرةُ كلُّها ... وأُفردتُ إفرادَ البعير المعبَّد

وهناك طائفة أخرى من الشعراء خلعتهم قبائلهم لسوء مسلكهم الذي كان يجرُّ على هذه القبائل كثيراً من الشر ، وهم الشعراء الصعاليك .

(ب): ذمُّ الشعر في الحديث النبوي :

رغم ما تقدم من أحاديث مدح للشعر ، فقد صحَّ عن رسول الله ﷺ حديث واحد في ذم الشعر رواه البخاري ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود بوجوه

مسلم [١] عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أنه قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج [٢] إذ عرض شاعر يُنشد ، فقال رسول الله ﷺ "خذوا الشيطان ، أو أمسكوا الشيطان ، لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً خيرٌ له من أن يمتلئ شعرا " . ولقد اجتهدت طائفة كبيرة من أهل العلم في معالجة هذا الحديث وتأويله تأويلاً يتفق مع الأحاديث الكثيرة الوفيرة التي أوردنا شيئا منها في مدح الشعر ، والثناء على قائليه ، وكان في طليعة هؤلاء السهيلي الذي استند إلى ما ذهبت إليه عائشة ـ رضى الله عنها ـ من أن المقصود بالشعر الوارد في هذا الحديث إنما هو الشعر الذي هُجي به الرسول ﷺ لا الشعر كله [٣] ، ويؤكد هذا حديث رواه جابر وهو : " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً أو دماً خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً هُجيت به" [٤] . فالشعر المذموم في هذا الحديث هو الشعر الذي هجي به الرسول الأعظم ﷺ

وذهب ابن حجر العسقلاني إلى أن الذين خوطبوا بذلك إنما كانوا في غاية الإقبال على الشعر والاشتغال به ، فزجرهم الرسول ﷺ عنه ليُقبلوا على القرآن الكريم وعلى ذكر الله تعالى ، فإذا أخذ المسلم من هذين الأمرين ما يجب عليه أن يأخذه فإن الشعر لا يضرُّه بعد ذلك [٥] .

وخلاصة القول :

أولا : أن الإسلام لا يحارب الشعر لذاته ، وإنما يحارب الفاسد من مناهج الشعراء ؛ ذلك لأن الشعر باب من أبواب الكلامَ ، وضرب من ضروبه ، فصالحه كصالح غيره من الكلام وهو مقبول ، وفاسده كفاسده وهو مرفوض ، وما يقال عن الشعر يقال عن فنون الأدب الأخرى كالخطابة والقصة ، والأقصوصة وغيرها ..

ثانياً : أن القرآن لم يُصدر حكماً على الشعر ولم يتخذ منه موقفاً خاصاً ، وإنما نفى عن النبي ﷺ أن يكون شاعراً من الشعراء أو أن تكون رسالته كرسالتهم " إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين ".

---

(١) صحيح مسلم : الحديث ذو الرقم ٢٢٥٩ كتاب الشعر .

(٢) مكان بين مكة والمدينة المنورة .

(٣) انظر الروض الأنف للسهيلي : ٥/٧٣- ٧٤.

(٤) انظر فتح الباري : ٣٩/٢٢ .

(٥) انظر فتح الباري : ٣٥٧/٢٢ .

نماذج من صور الكتابة والتدوين في العصر الأموي

الكتابة والتدوين :

لعل من أهم الأسباب التى هيأت لرقى الكتابة الفنية فى عهد بنى أمية تعريب الدواوين فى البلاد المختلفة، فقد كان يلى أمر هذه الدواوين فى بادىء الأمر كُتاب من الموالى، ففى فارس والعراق كانت تكتب بالفارسية، وفى الشام بالرومية، وفى مصر باليونانية ولقد تمت حركة التعريب هذه فى خلافة عبد الملك بن مروان ثم من بعده الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، ولقد حذق كثير من الموالى الذين كانوا يعملون بهذه الدواوين اللغة العربية وأجادوها فكتبوا بها بعد أن طعمت بأساليبهم وأفكارهم ومناهجهم، وكان لهذا أثره البالغ فى تطوير الكتابة العربية حتى إنها قد أصبحت فى العصور العباسية المتأخرة كتابة فارسية فى إطار عربى، ولعل من أبرز الكُتاب الموالى الذين كان لهم أثر فى تطور الكتابة العربية، سالم مولى هشام بن عبد الملك الذى استعمله على ديوانه، وكان سالم يتقن اليونانية ونقل عنها إلى العربية بضع رسائل لآرسطو(٢)، وهذا تيار يونانى أسهم مع التيار الفارسى فى بناء الحياة الأدبية والعقلية العربية بناء جديداً، وذلك مع ظهور ديوان الرسائل.

أيضاً من الأسباب التى أدت لرقى الكتابة وبخاصة السياسية أن كثيراً ممن كانوا يكتبونها كانوا يعدون فى الذروة من الفصاحة والبيان لهذا العصر أمثال زيادة والحجاج وقطرى بن الفجاءة والمختارة الثقفى.

وقد كان من بين الدواعى التى أدت إلى ازدهار الكتابة هو الحاجة إلى فهم كتاب الله أو التطلع إلى جمع السنة وتوثيقها، وذلك أن تأويل القرآن يقتضى ممن يتصدى له معرفة أسباب نزول الآيات وملابساتها

وهذه المعرفة بدورها تستلزم نوعاً من التأصيل التاريخى، كما أن العناية بجمع السنة وتدوينها هى فى أساسها عملية كتابية، بالإضافة إلى أنها توفر طائفة لا بأس بها من الأحاديث التى تتناول حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته ومعايش أصحابه وسيرهم ومن هذه وتلك تكونت بواكير كتب السير والمغازى والطبقات وجميعها مدونات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتطور الكتابة والنثر العربى على وجه العموم.

كذلك كان من دواعى الكتابة الأدبية تحول النظام السياسى فى الإسلام من خلافة تنهض على محورى الشورى والديمقراطية فى عهد الراشدين إلى ملكية وراثية تنهض على محورى الوراثة وولاية العهد فى عصر الأمويين وقد أفضى بالخلفاء وأولى الأمر إلى التماس القدوة فيما يقع إليهم من أخبار الملوك الماضين وسيرهم وفيما يتسنى لهم من أطور الأمم الأجنبية وأحوالها فى الحكم والسياسة.

وكان لكثرة الفرق والمذاهب وتعددها فى ذلك العصر ونشوب الحروب بينها وخاصة بين الخوارج بفرقها الأربع: الأزارقة والنجدية والصفرية والأباضية وبنى أمية وكذلك الشيعة، وظل بنى أمية يوجهون الجيوش إليهم وخاصة ولاة العراق وواليها الحجاج وكان زعيمهم لعهده قطرى بن الفجاءة ونرى الحجاج يراسله مهدداً متوعداً ويرد عليه قطرى بنفس الصورة من التهديد والتوعد، ونحن نسوق رسالتين[1] لهما تصوران كيف كان يتراسل الولاة مع الثائرين من خوارج وغير خوارج، أما رسالة الحجاج فتجرى على هذا النمط: «سلام عليك أما بعد، فإنك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية، وقد علمت حيث تجرثمت[2] ذاك إنك

---

(١) البيان والتبيين جـ٢/ ٣١٠، الكامل لمبرد صـ٢١٤.
(٢) تجرثمت الشيء: أخذت معظمه.

عاصٍ لله ولولاة أمره، غير أنك أعرابى جلف أمى تستطعم الكسرة وتستشفى بالتمرة والأمور عليك حسرة، خرجت لتنال شبعة فلحق به طغام صلوا بما صليت من العيش فهم يهزون الرماح، ويستنشئون الرياح على خوف وجهد من أمورهم، وما أصبحوا ينتظرون أعظم ما جهلوا معرفته، ثم أهلكهم الله بنزحتين والسلام. وأجابه قطرى:

سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله ويرهبون نقمه، فالحمد لله على ما أظهر من دينه، وأظلع بن أهل السفال[١] وهدى به من الضلال ونصر به عند استخفافك بحقه، كتبت إلىّ تذكر أنى أعرابى جلف أمى استطعم الكسرة واستشفى بالتمرة ولعمرى يا ابن أم الحجاج[٢] إنك لمتيه فى جبلتك[٣] مطلخم[٤] فى طريقتك، واه فى وثيقتك[٥]، لا تعرف الله، ولا تجزع من خطيئتك يئست واستيأست من ربك، فالشيطان قرينك، لا تجاذبه وثاقك، ولا تنازعه خناقك، فالحمد لله الذى لو شاء أبرز لى صفحتك وأوضح لى صلعتك[٦] فوالذى نفس قطرى بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال[٧] مع أنى أرجو أن يدحض الله حجتك، وأن يمنحنى مهجتك».

وبالنظر إلى هاتين الرسالتين نجد الصنعة فى بسط التعبير ومده، وكذلك اعتمادهما على السجع واختيار الألفاظ والصور من البيئة وما يواءمها.

والرسائل قد تكون قصيرة وغير مسجوعة ومثال ذلك ما كتبه يحيى ابن يعمر كاتب يزيد بن المهلب إلى الحجاج «إنا لقينا العدو، فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة برءوس الجبال

---

(١) اظلع من الظلع وهو العرج، السفال سفول الحلق.
(٢) يا ابن أم الحجاج: تقال إذا أرادوا الطعن فى النسب.
(٣) متيه: مضلل، الجبلة: السجية.
(٤) مطلخم: متعجرف.
(٥) وثيقتك: الثقة.
(٦) كناية عن ذاتية وانكشاف أمره.
(٧) تصدير المقال: تسطيره وتحبيره.

وعرائر[1] الأدوية وأهضام[2] الغيطان، وبتنا بعرعرة[3] الجبل، وبات العدو بحضيضه[4].

ولما قرأ الحجاة الرسالة أعجب بها إعجاباً شديداً، وأرسل إلى يحيى يطلبه على البريد، فلما جاءه سأله: من أين لك هذه الفصاحة؟ وهى فصاحة كانت تعتمد على اللفظ الغريب، ونحن لا نثنى على الإغراب فى الألفاظ ولكنا نستدل من هذه الرسالة الموجزة على أن الكتاب فى عصر الحجاج كانوا لا يزالون يفكرون فى صنعة أساليبهم، فتارة يعمدون فيها إلى السجع، وتارة يعمدون فيها إلى الإغراب اللفظى، فالكاتب لا يفكر فى أداء معانيه فحسب بل يفكر فى تنميتها بضروب من الحلية، كل حسب ذوقه، وكان يحيى بن يعمر لغوياً، وكان ذوقه ذوق لغويين فعمد إلى ألفاظ غير مألوفة كى يروع الحجاج ويملك عليه لبه، ونفذ فعلاً إلى ما أراده، إذا كان الحجاج يميل أحياناً إلى التفاصح بالغريب، على نحو ما مر بنا فى خطبه.

ولم يكن الحجاج يعمد إلى السجع فى كتبه ورسائله دائماً، بل لعل ذلك إنما كان فى القلة وفى الحين بعد الحين، أما الكثرة فتخلوا من السجع، وليس معنى هذا أنه كان يتخلص من محاولة التأنق والتنسيق، فقد كان يسعى إلى تحقيق ذلك دائماً، وكان يتخذ إليه الإغراب فى اللفظ حيناً، وحيناً يتخذ الصور والاستعارات الطريفة، ومن خير ما يصور ذلك عنده ما

---

(١) عرائر الأدوية: أسلفها.
(٢) أهضام الغيطان: مداخلها.
(٣) عرعرة الجبل: أعلاه.
(٤) البيان والتبين ١/٣٧٧.

رواه الجاحظ في خاتمة بيانه من أنه كتب إلى عبد الملك بهذا الرسالة[١].

«أما بعد فإنا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب أرضنا وابل[٢] منذ كتبت أخبره عن سقيا الله إيانا، إلا ما بل وجه الأرض من الطش والرش والرذاذ[٣] حتى دقعت[٤] الأرض واقشعرت[٥] واغبرت[٦] وثارت فى نواحيها أعاصير تذرو[٧] دقاق الأرض من ترابها، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها[٨] وامتناعها، وأرضنا أرض سريع تغيرها، وشيك تنكرها، سيئ ظن أهلها عن قحوط المطر، حتى أرسل الله بالقبول[٩] يوم الجمعة فأثارت زبرجاً[١٠] متقطعاً متمصراً[١١]، ثم أعقبته الشمال[١٢] يوم السبت، فطحطحت[١٣] عنه جهامه[١٤]، وألفت متقطعة، متمصرة حتى انتضد[١٥]، فاستوى وطماً وطحاً[١٦]، وكان[١٧] جوناً[١٨] مرثعنا قريباً رواعده ثم عادت عوائده بوابل منهمل منسجل

وواضح أن هذه الرسالة يظهر فيها بوضوح آثار الاستعداد والتأنق وإحكام صنعتها، سواء من حيث اختيار ألفاظها والذهاب بها مذهب الغريب المقبول، أو من يحث دقتها فى تصوير الجدب ثم نزول الغيث وهو تصوير لا شك قد فكر فيه الحجاج طويلاً، قبل أن يحكمه ويضبط التشبيهات

(١) البيان والتبين ٤/٩٩.
(٢) وابلك مطر شديد.
(٣) الطش: المطر القليل، ونحوه الرش والرذاذ.
(٤) دقعت الأرض: أصبحت لا نبات فيها.
(٥) اقشعرت: تقبضت من الجدب.
(٦) أغبرت: من الغبار.
(٧) تذرو: تسفى وتحمل.
(٨) اعتزازها: امتناعها، أو لعله من العزاز وهى الأرض الصلبة.
(٩) القبول: الريح الشرقية.
(١٠) الزبرج: السحاب الرقيق الخفيف.
(١١) متمصراً: متقطعاً.
(١٢) الشمال: الريح الشمالية.
(١٣) طحطحت: فرقت وبددت.
(١٤) الجهام: السحاب لا ماء فيه.
(١٥) انتضد: تراكمت طبقاته بعضها فوق بعض.
(١٦) طما: امتلأ وزخر، طحا: انبسط وملأ الجو.
(١٧) كان: هنا بمعنى صار.
(١٨) الجون: الأسود. مرثعناً: مسترسلاً سائلاً. منسجل: منصب.

والاستعارات التى تمثله، وكأنه شاعر يجمع أشتات خياله، ليؤلف هذه اللوحة البديعة.

ولم تكن الرسائل السياسية وحدها هى التى يطرد لها النمو والازدهار، بل شاركتها فى ذلك الرسائل الاجتماعية أو الشخصية لسبب بسيط، وهو أن من كانوا يكتبونها كانوا يعيشون فى تلك الحقب التى أخذ البلغاء يهتمون فيها بتنميق أساليبهم وإيداعها ضروباً من البيان والفصاحة، ونسوق مثلاً لها رسالة عبد الله بن معاوية بن عبد الله جعفر إلىَ رجل من إخوانه(١).

«أما بعد فقد عاقنى الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة، ثم أعقبتنى جفاء من غير ذنب، فأطمعنى أولك فى إخائك وأيأسنى آخرك فى رفائك، فلا أنا فى اليوم مجمع لك اطراحاً، ولا أنا فى غد وانتظاره على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة فيك، فأقمنا على أئتلاف، أو افترقنا على اختلاف والسلام».

والرسالة على قصرها يتضح فيها جهد كاتبها فى تحبيرها، فقد بناها على الطباق والمقابلة بين المعانى والألفاظ، والتوازن بين العبارات والكلمات الفصيحة ذات المخارج الحسنة، وكان شاعراً بيناً وخطيباً لسناً فأضفى من لسنه وبيانه على رسالته.

وإذا تركنا الرسائل الاجتماعية الشخصية والسياسية الرسمية إلى الرسائل الدينية والجدلية وجدنا أصحابها هم أنفسهم أرباب البيان والبلاغة من الخطباء المفوهين أمثال حسن البصرى وغيلان الدمشقى، وكانت هذه الرسائل تستخدم الأسلوب المزدوج الذى يأخذ بأطراف من التصوير والطباق، ومثال ذلك رسالة لغيلان الدمشقى يقول فيها(٢):

---

(١) البيان والتبين ٢/٨٤، زهر الآداب ١/٧٨.

(٢) عيون الأخبار ٢/ ٢٤٥.

«إن التراجع فى المواعظ يوشك أن يذهب يومها ويأتى يوم الصاخة[1] كل الخلق يومئذ مصيخ[2]، يستمع ما يقال ويقضى عليه (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا)، فاصمت اليوم عما يصمتك يومئذ، وتعلم ذلك حتى تعلمه، وابتغه حتى تجده، وبادر قبل أن تفجأك دعوة الموت، فإنها عنيفة إلا بمن رحم الله، ويا رب متعبد لله بلسانه معادٍ له بفعله، ذلول فى الانسياق إلى عذاب السعير فى أمنية أضغاث[3] أحلام يعبرها بالأمانى والظنون، فاعرف نفسك».

وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعاظ أن يرسلوا إليه بعظاتهم ويروى أنه لما ولى الخلافة أرسل إلى الحسن البصرى[4] أن يكتب إليه بصفة «الإمام العادل»[5] فدبج له رسالة طويلة استهلها بقوله:

«اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم[6]، ومفزع[7] كل ملهوف، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق بها، الذى يرتاد لها أطيب المراعى، ويذودها[8]، عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها[9] من أذى الحر والقر،

---

(١) يوم الصاخة: يوم القيامة.
(٢) مصيخ: مرهف أذنه وسمعه.
(٣) أضغاث: أخلاط.
(٤) كان يسار والد الحسن البصرى قد سبى فى أيام الفتوح فى ميسان (جنوب العراق) ثم جيء به إلى المدينة فأسلم وأصبح مولى لزيد بن ثابت الأنصارى.
أما أبو سعيد الحسن بن يسار البصرى فقد ولد فى المدينة سنة ٢١هـ، ٦٤٢م ونشأ فى وادى القرى (شمالى الحجاز) ثم انتقل إلى البصرة وولى القضاء فيها ويعد الحسن البصرى من رواة الحديث وفصيحاً واعظاً وخطيباً، قيل فيه أخطب الناس صاحب العمامة السوداء أى الحسن البصرى، كما كان فصيحاً بليغاً بارعاً فى اللغة والفقه تقياً زاهداً واسع العلم حسن الأخلاق، وكان جريئاً فى ابداء رأيه لا يحجم عن تذكير الولاة إن هم انحرفوا عن الحق، وله مع الحجاج ابن يوسف مواقف عنيفة سلم فيها من أذاه بفضل هيبته وقوة عارضته.

(٥) العقد الفريد جـ١ صـ٣٤.
(٦) نصفة المظلوم: انصافه ورد حقه إليه.
(٧) مفزع: ملجأ.
(٨) يذودها: يردها.
(٩) يكنها: يسترها.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأب الحانى[٦] على ولده، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً ووضعته كرهاً، وربته طفلاً تسهر بسهره وتسكن بسكوته، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى وخازن المساكين يربى صغيرهم، ويمون كبيرهم، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح[٧] تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال، فافقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود[١] ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر[٢].

ويعد أسلوب الحسن البصرى صلة وصل بين الأسلوب المطلق والمسجع من جهة والأسلوب المتوازن من جهة أخرى من حيث صدق اللهجة ووضوح الغرض ونجده يميل إلى التدقيق فى المعانى والتفصيل وهو بعيد عن الجفاء والخشونة يميل إلى الرقة والعذوبة، واختيار الألفاظ والصور المعبرة والاستشهاد بالآيات القرآنية، ونجد صوره مأخوذة من البيئة

---

(١) الحدود: العقوبات.
(٢) الفزع الأكبر: يريد يوم الحساب يوم القيامة.

المحيطة به القريبة للإفهام والمعبرة عن المعانى فى أدق صورة وأبرع تفصيل، ومما يدل على بلاغته فى التعبير والتصوير ما قاله فى صفة المؤمن.

يقول الحسن البصرى وهو يصور المؤمن عند أهل السنة: «إن المؤمنين قوم ذلل، ذلت والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى وإنهم لأصحاء القلوب، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، والله ما حزنهم حزن الدنيا، ولا تعاظم فى أنفسهم ما طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وأن من لا يعتز بعز الله يقطع نفسه على الدنيا حسرات، هذا نهارهم فكيف ليلهم، خير ليل: صفوا أقدامهم وأجروا دموعهم على خدودهم يطلبون إلى الله - جل ثناؤه - فى فكاك رقابهم[1].

ووافق هذا السبب الدينى فى ازدهار الخطابة سبب عقلى مرده إلى عناصر الثقافات الأجنبية التى أخذ يدعم بها العقل العربى منذ هذا العصر مما فتق فيه قوة الجدل والحجاج ومعروف أن الثقافة لهذا العصر لمَ يضطلع بها العرب وحدهم بل كان يشركهم فيها الموالى الذين اتخذوا العربية لسانهم وقد أخذوا يزودونها بمعارفهم وثقافاتهم القديمة فإذا قلنا إنهم ارتقوا بالعقل العربى وكل ما أنتجه فى ذلك العصر من خطابة وغير خطابة لم نكن مبالغين، فقد كثرت المعرفة وتشعبت المعانى ودقت الفطن ولم يعد لها حد تنتهى إليه وانسابت من ذلك أسراب كثيرة فى خطابتهم، فصاروا أقدر على البيان والتصرف فى الألفاظ.

---

(١) تفسير الطبرى: ١٩ - ٢١.

كتاب عبد الحميد إلى أهله[1]

كتب عبد الحميد (من رسالة إلى أهله) وهو منهزم مع مروان

أمّا بعد ، فإنّ الله تعالى ، جعلَ الدُّنيا محفوفةً بالكُرْه والسرور ، وجعلَ فيها أقساماً مختلفةً بين أهلها ، فمَن درَّت له بحلاوتها ، وساعدَه الحظُّ فيها ، سكنَ إليها ورَضيَ بها ، وأقامَ عليها ، ومَن قرصتْهُ بأظفارها ، وعضَّته بأنيابها ، قلاها نافراً عنها ، وذمَّها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها ، وقد كانت أذاقَتْنا أفاويق[2] استحليناها ، ثمّ جَمَحَتْ بنا نافرةً ، ورَمَحَتْنا مُوَلِّيةً ، فَمَلُحَ عذْبُها ، وخَشُنَ ليِّنُها ، فأبعدَتْنا عن الأوطان ، وفرَّقتنا عن الإخوانِ ، فالدّار نازحةٌ[3] ، والطَّيرُ بارحةٌ[4] ، وقد كتبتُ

---

(١) عبدُ الحميد بن يحيى بن سعد العامري بالولاء ، المعروف بالكاتب ، عالم بالأدب ، من أئمة الكتاب . يضرب به المثل في البلاغة ، أصله من قيسارية ، سكن الشام ، واختص بمروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي (آخر ملوك بني أمية في الشام ، توفي سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م) : ويقال : فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد ، له رسائل تقع في نحو ألف ، طبع بعضها ، وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب . ولما قوي أمر العباسيين ، وشعر مروان بزوال ملكه ، قال لعبد الحميد : وقد احتجت أن تصير إلى عدوي ، وتظهر الغدر بي ، وإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابك ستحوجهم إلى حسن الظن بك ، فأبى عبد الحميد مفارقته . وبقي معه إلى أن قتلا معاً في بوصير بمصر سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م . انظر ترجمته في : مروج الذهب ٢٦٣/٣ ـ ٢٦٤ . ووفيات الأعيان ٢٢٨/٣ ـ ٢٣١ . والأعلام ٢٨٩/٣ ـ ٢٩٠ .

(٢) الفيقة : اسم اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين .

(٣) نازحة : بعيدة .

(٤) البارح من الطير والوحش : ما مر من مينك إلى ميسرك والعرب تتطير به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى ينحرف ، والسانح : ما مر من مياسرك إلى ميامنك . والعرب تتين به لأنه أمكن للرمي والصيد .

والأيّامَ تَزيدنا منكُم بُعداً ، وإليكم صبابةً ووجداً ، فإن تمّ البليّة إلى أقصى مُدّتها ، يكن آخر العَهدِ بكُم وبنا ، وإن يَلْحَقْنا ظِفْرٌ جارحٌ من أظفارِ من يَليكُم نرجَعْ إليكُم بذلّ الإسار[1] ، والذلُّ شرٌ جارٍ ، نسألُ الله الذي يُعِزُّ من يشاءُ ، ويُذِلُّ من يشاءُ ، أن يَهَبَ لنا ولكُم أُلْفَةً جامعةً ، في دارٍ آمنةٍ ، تجمع سلامَة الأديانِ والأبدانِ ، فإنّه ربُّ العالَمين وأرحمُ الرّاحمين .

ـ في النقد والأدب ، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ .

ـ جمهرة رسائل العرب ٤٨٦/٢ ـ ٤٨٧ .

(١) الإسار : القيد الذي يشد به .

معجزة القرآن الكريم : وأثره

القرآن الكريم مفخرة العرب والمسلمين ، ومعجزة النبي الأمين ، إذ لم يُتح لأمة من الأمم كتاب مثله من حيث البلاغة وروعة التأثير ومن حيث الحكمة في التشريع وصدق الإخبار والتبليغ .. فكان بحق نهج المسلمين الذي يحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة .

وكان الرسول ﷺ لا يكاد يمضي في تلاوته حتى يروع سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم سواء أكانوا مَن أنصاره أم من أعدائه ، فقد روى الرواة أن الوليد بن المغيرة الذي كان من ألدّ خصومه سمعه يتلو بعض آي القرآن الكريم فراح إلى نفر من قريش وهو يقول لهم : " والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وأن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو وما يُعلى "(١) وواضح أنه أحسّ بدقة آي القرآن التي تغاير كلام فصحاء الإنس كما تباين كلام الجن الذي كان ينطق به كهانهم . إنه ليس شعراً موزوناً مما عُرف على ألسنة الشعراء ولا سجعاً مقفّى مما كان يدور على ألسنة الكهان والخطباء ، وإنما هو نمطٌ وحده ، معجز ببيانه باهر بصدقه ونظامه ، فصلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس وتجد فيها وفيما يتصل بها من ألفاظ روحاً وعذوبة ، وصدق الله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من ممثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وقد عجزت العرب عن معارضته فمضوا يجرّدون سيوفهم ويغمدون ألسنتهم ولم تلبس المعجزة الباهرة أن استعلت ولم تلبث أضواؤها أن انتشرت في الجزيرة ، وسرعان

---

(١) راجع العصر العباسي شوقي ضيف ص ٣٠ وتفسير الزمخشري في سورة المدثر. ومغدق كثير المياه.

ما بزغت على دروب العالم ومسالكه ويحصي الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن الكريم وجوه الإعجاز فيما يلي:

١- الإخبار عن المغيرات ٢- نظم القرآن وبلاغته

٣- ما في القرآن من أخبار الأمم القديمة مع أميَّة الرسول ﷺ

ويمكن أيضاً إظهار بعض مظاهر الإعجاز الأخرى في :[1]

أغراض القرآن ومقاصده – ألفاظه وأساليبه ومعانيه

أما من جهة أغراضه ومقاصده : فنجد في كل غرض أو موضوع غاية في الإبانة والجلاء فمن تشريع خالد وتهذيب بارع وتعليم جامع وأدب بالغ ، وإرشاد شامل ، وقصص واعظ ، ومثل سائر وحكمة بالغة ووعد ووعيد وإخبار بمغيب .. وقد كان فحول البلاغة لا يبرز أحدهم إلا في فن واحد من أنواع القول فمن يبرع في الخطابة لا ينبغ في الشعر ومن يحسن الرجز لا يجيد القصيد ومن يُستعظم منه الفخر لا يستعذب منه النسيب ؛ ولهذا ضربوا المثل بامرئ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب والأعشى إذا طرب والنابغة إذا رهب .!!

وأما من جهة ألفاظه وأساليبه : فلا نجد منه إلا عذوبة في اللفظ ودماثة في النظم ، وتجاذبا في التراكيب فليس فيها وحشي متنافر ، ولا سوقيّ مبتذل ولا تعبير متنافر ولا فاصلة متعمّلة .. حتى إنك لترى الجملة المقتبسة منه في كلام أفصح الفصحاء نوراً تكسوه روعة وجلالا ، فمن إجمال في خطاب الخاصة إلى تفصيل في تفهيم العامة و تكنية للعربي ، وتصريح للأعجمي وغير هذا مما يقصر عن إحصائه الإلمام " ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام " !!

---

(١) راجع في الدراسات الأدبية د/ محمد عبد المنعم خفاجي ود/علي علي صبح ط/١ ص ١٩ وما بعده ، وجواهر الأدب أحمد الهاشمي ط/ دار الفكر ص٣٦٨

ومن جهة معانيه كأنك تجدها من غير معين العرب الــذي منــه يسـتقون لاطراد صدقها وقرب تناولها واطمئنان النفوس إليها وابتكارها البديع علــى غير المثال المعهود وأحكام مسلمة تشبيهات رائعة وهو في جملتــه نزهــة النفوس وشفاء الصدور وهو الكتاب الخالد الذي لا تبديل لكلماته ولا ناســخ لأحكامه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون ﴾

أثر القرآن فى اللغة العربية :[1]

جمع القرآن العرب على لهجة قريش وهى التي كانت تسود القبائل الشمالية فى الجاهلية غير أن هذه السيادة لم تكن تامة ، فكان الشعراء يسـتخدمونها غالبا أما قبائلهم فكانت تلوك لهجات مختلفة ، حسـب قربها مــن مكــة أو بعدها ، فعمل القرآن على تقريب ما بين هذه اللهجات واسـتكمال السـيادة بلهجة قريش ، ولما فتحت الفتوح أخذت لهجة القرآن تسود فــى مشـارق العالم الإسلامي ومغاربه ، إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كــل مسـلم وحث الإسلام على حفظه وترتيله ، فقال سبحانه ﴿ ورتل القرآن ترتيـلا ﴾ وقال : ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكــى ونحشـره يـوم القيامة أعمى .. ﴾ وبذلك تحوّل المسلمون إلى حفظة القرآن يتلونه صبــاح مساء حتى من سكن منهم الصحارى ورؤوس الجبال مما جعلهم ينطبعــون بطوابعه اللغوية

ثانيا : حول اللغة العربية إلى لغة ذات دين سماوي باهر وبذلك أحل فيــها معاني لم تكن تعرفها من قبل وبمرّ الزمن أخذت العرب علوماً كثيرة مــن هذا الدين الجديد ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنمــا كان بفضل ما غرس فيهم القرآن الكريم من حب العلم .

ثالثا: أنه هذب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريــب فأقامــها فــي هــذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ويكفىّ أن تعود إلى معلقة لبيد أو إلــى

---

(١) راجع فى العصر الإسلامي ص ٣٠ - ٣٣

شعر قبيلة هذيل وديوانها المطبوع لنرى كيف أن القرآن اختط أسلوبا جزلاً مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب طريق

أثر القرآن في الأدب العربي شعره ونثره :[1]

أولا : في الألفاظ والأساليب وتتجلى فيما يأتى :

١- جدد القرآن كثيراً من الألفاظ فنقلها إلى معاني إسلامية مثل الإيمان والكفر والنفاق والصلاة والصيام والزكاة والركوع والسجود والوضوء والغسل والحج .. كما وحّد القرآن لهجات العرب في أفصح لهجة وأعذبها ألا وهى لهجة ولغة قريش .

٢- هذّب القرآن الأساليب والألفاظ وذلك بكثرة ترديد المسلمين لآياته على ألسنتهم في الصلاة والعبادة واستنباط أحكام دينهم وشريعتهم منه ؛ ونتيجة لذلك هجرت ألفاظ حوشية معيبة واستبدل بها ألفاظ القرآن العذبة وعدل عن الأساليب القديمة المعقدة إلى غيرها من الأساليب .

٣- وقد كثرت محاكاة الشعراء والكتاب والخطباء لعبارات القرآن في ألفاظه وأساليبه واقتباسهم من آياته فيما يقولون واستشهادهم بها في خطبهم وجدلهم ، والمتتبع لشعر المخضرمين كحسان وكعب بن مالك والحارث بن عبد المطلب ولشعر الإسلاميين يرى كثيراً من ألفاظ القرآن وأساليبه وكناياته وتشبيهاته .

٤- قد خلّدت صور البيان الرائع والأساليب البديعية التي استخرجها الأدباء من القرآن وأسموها المحسنات البديعية .

ثانيا في المعاني والمعاني : وتتجلى فيما يأتي :

١- شيوع الدقة والترتيب العقلي والحصافة والسمو في معاني الأدب شعره ونثره بتأثر الأدباء والشعراء بمعاني القرآن ومحاكاتهم لها

٢- هجر المعاني البدوية واستعمال الأدب للمعاني الإسلامية الجديدة

---

(١) راجع في الدراسات الأدبية ص ٢١ - ٢٣

٣- ترك المبالغة والفحش وجنحوا إلى الصدق في معاني الأدباء الإسلاميين، حيث هجروا الأغراض الجاهلية من المبالغة في المدح والفخر والهجاء والمجون في الغزل والدعوة إلى العصبيات والانتقام والأخذ بالثأر.

٤- صار الأدباء الإسلاميون يتحدثون في الأغراض الشريفة السامية كالدعوة إلى الخير والبر والمعروف ، وإلى ما في الإسلام من آداب .

٥-وقد أتى القرآن بكثير من القصص المسوقة للعبرة والذكرى ، كقصص الأنبياء وبعض الملوك ، وكان من أهم الأساليب التي حملت المسلمين على درس تاريخ العرب البائدة والأمم القديمة السامية وغير السامية مما جعل التاريخ العربي ذا فنون وشعب كثيرة العدد والمباحث ، وجعله من أجمل كتب الأدب العربي .

٦- وبسبب القرآن عكف العلماء والمفكرون على وضع أصول العلوم والثقافة الإسلامية ، وكثرت الكتابة في هذه العلوم والثقافات ولشدة حرص المسلمين على تفهم القرآن حملهم ذلك على تتبع ألفاظ اللغة العربية الفصيحة من العرب الموثوق بخلوص عربيتهم ، فكان من ذلك أن تجرد ألوف من الرواة يجمعون اللغة وشعرها وحكمها وأمثالها ووصاياها وخطبها وأسجاع كهانها . فجمعوا من ذلك مئات الكتب والرسائل . وتألفت بذلك مادة الأدب القديم التى صارت فيما بعد أساساً للآداب العربية في موضوعاته ، و الأغراض والمعاني والأخيلة .

أثر الحديث في الأدب العربي : ويمكن تلخيصه فيما يلي :

أولا : في الألفاظ والأساليب :

١- زاد الحديث النبوي ألفاظا جديدة ، كتسميته " صفر الأول " محرما وكلفظ الزمارة للزانية ، التي وردت في حديث أبى هريرة " إن النبي ﷺ نهى عن كسب الزمارة " وككلمة الصير بمعنى الشق في قوله ﷺ

" من أطلع صير باب فقد دمر " . وللحديث الشريف أثر في توسيع معاني بعض الألفاظ واشتقاق أخرى مما لا داعي للإفاضة فيه .

٢- ساعد الحديث النبوي على تهذيب الألسنة ، وتثقيف الطباع والقضاء على الحوشية والغرابة والمعاظلة والتعقيد في البيان ، وأحل محل ذلك السلاسة والسهولة والرونق والوضوح وسلامة الأسلوب والبيان .

٣- قضى على سجع الكهان فرفع منزلة النثر ، وهذّب أغراضه وفنونه .

٤- زاد كثيراً من الأساليب البليغة في الأدب العربي بالاقتباس من روح الإسلام وألفاظ القرآن ، ومعرفة اللهجات ..

ثانياً : أثره في المعاني :

وقد أثّر الحديث في معاني الأدب والأدباء والشعراء وأخيلتهم تأثيراً كبيراً فنضجت به معانيهم ، ودقت أفكارهم وحصفت آراؤهم وأصبحت المعاني كذلك يسودها الإحكام والترتيب ، ويغلب عليها السمو والطهر والنزوع إلى المثل العليا و المبادئ الشريفة .

ثالثاً : أثره في أغراض الأدب :

وقد أثرت البلاغة النبوية في أغراض الأدب العربي تأثيرا كبيراً ، فهجر بسببها الهجاء الكاذب ، والفخر المبالغ فيه ، والهجاء الماجن ، والدعوة الجاهلية إلى الانتقام والأخذ بالثأر وإثارة العصبية .

وأصبحت أغراض الأدب تحتذي البلاغة اللغوية في أغراضها فلا يقول الأديب ولا ينظم الشاعر إلا في الدعوة إلى الخير والحق والسلام ، وفى تأييد العقيدة الإسلامية ، وفى كل شريف من الأغراض ، وكريم من الموضوعات ، كما صار الحديث النبوي كذلك محورا لعلوم دينية وعربية كثيرة وضحت لدراسة الحديث .

وقد ساعد الحديث النبوي كذلك على توحيد اللهجات العربية وعلى ذيوعها وخلودها فهو متمم للقرآن الكريم فى هذا الميدان .

عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَة

قال عمر :

قالَتْ عَلَى رِقْبَةٍ يَوْمًا لِجارَتِها   ما تَأْمُرِينَ فَإِنَّ ٱلْقَلْبَ قَدْ شُغِلا
فَجاوَبَتْها حَصانٌ غَيْرُ فاحِشَةٍ   بِرَجْعِ قَوْلٍ وَأَمْرٍ لَمْ يَكُنْ خَطِلا
اِقْنَيْ حَياءَكِ فِى سِتْرٍ وَفِى كَرَمٍ   فَلَسْتِ أَوَّلَ أُنْثَى عُلِّقَتْ رَجُلا
لا تُظْهِرِى حُبَّهُ حَتَّى أُراجِعَهُ   إِنِّى سَأَكْفِيكِهِ إِنْ لَمْ أَمُتْ عَجَلا
صَدَّتْ بِعادًا وَقالَتْ لِلَّتِى مَعَها   بِٱللهِ لُومِيهِ فِى بَعْضِ ٱلَّذِى فَعَلا

وَحَدِّثِيهِ بِما حُدِّثْتُ وَٱسْتَمِعِى   ماذا يَقُولُ وَلا تَعْيَى بِهِ جَدَلا
حَتَّى يَرَى أَنَّ ما قالَ ٱلْوُشاةُ لَهُ   فِينا لَدَيْهِ إِلَيْنا كُلَّهُ نُقِلا
وَعَرِّفِيهِ بِهِمْ كَٱلْهَزْلِ وَٱحْتَفِظِى   فِى غَيْرِ مَعْتَبَةٍ أَنْ تُغْضِبِى ٱلرَّجُلا
فَإِنَّ عَهْدِى بِهِ وَٱللهُ يَحْفَظُهُ   وَإِنْ أَتَى ٱلذَّنْبَ مِمَّنْ يَكْرَهُ ٱلْعَذَلا
لَوْ عِنْدَنا ٱغْتِيبَ أَوْ نِيلَتْ نَقِيصَتُهُ   ما آبَ مُغْتابُهُ مِنْ عِنْدِنا جَذِلا
قُلْتُ ٱسْمَعِى فَلَقَدْ أَبْلَغْتِ فِى لُطُفٍ   وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى ذِى ٱللُّبِّ مَنْ هَزَلا
هٰذا أَرادَتْ بِهِ بُخْلًا لِنَعْذِرَها   وَقَدْ نَرَى أَنَّها لَنْ تَعْدَمَ ٱلْعِلَلا
ما سُمِّىَ ٱلْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ   وَلا ٱلْفُؤادُ فُؤادًا غَيْرَ أَنْ عَقَلا
أَمَّا ٱلْحَدِيثُ ٱلَّذِى قالَتْ أُتِيتُ بِهِ   فَما عَنِيتُ بِهِ إِذْ جاءَنِى حِوَلا
وَما أُقِرُّ لَها بِٱلْغَيْبِ قَدْ عَلِمَتْ   مَقالَةَ ٱلْكاشِحِ ٱلْواشِى إِذا مَحَلا
إِنِّى لَأَرْجِعُهُ فِيها بِسُخْطَتِهِ   وَقَدْ أَتانِى يُرَجِّى طاعَتِى نَفَلا

التصوير المشهدي:

وهو يعني أن صوت الشاعر يتحول إلى عين وإيقاعه يتحول إلى فضاء بصري منظم يجمع العناصر الدرامية في موقف إنساني، فكأن الشاعر يتحدث بأسلوب الكاميرا، ولعل أبرز تمثيل لذلك هو:

لما وقفنا نحييهم وقد صرخت
هواتف البين واستولت بهم أصلا
صدت بعاداً وقالت للتي معها
بالله لومـيه في بعض الذي فعلا

فالشاعر يشكل صورة كلية فيها الحركة (لما وقفنا/ صدت بعاداً) وفيها الملمح الزماني الذي تنعكس على المكان (أصلاً)، وفيها تعددت الأصوات داخل النص الشعري وتلك سمة مهمة في شعر عمر بن أبي ربيعة الذي أفسح القصيدة العربية لصوت المرأة تتحدث فيها بمشاعرها ورؤيتها، ولعله في ذلك امتداد لامرئ القيس وحلقة وصل تتصل إلى قمة اكتمالها عند نزار قباني.

ويتمثل التصوير المشهدي في هذه اللوحة التي شكلت تجربة عمر فيما يلي:

١. جماعة الصحابة يقفون لتوزيع الأدوار.
٢. الديكورات والمناظر التي تحدد الزمان والمكان.
٣. حوار افتتاحي فيه لوم وعتاب.
٤. العقدة المتمثلة في الوشاة وما نقلوه كذباً.
٥. الحل المتمثل في الحرص على عدم الغضب والدعاء والمعاملة بلطف.
٦. تعليل الحل، والوصول إلى أن القلوب تتقلب، لكن الفؤاد هو الذي يعقل الأمور.

وكأن هذه اللوحة رسمت بريشة فنان قادر على تحريك شخصياته وإحداث حوارات هامسة حيناً وصارخة حيناً آخر، وإضفاء اللغة والأساليب التي أحدثت الوظائف الدرامية في الخبر، وجاءت مناسبة لهذا الموقف الذي يشي بالفراق مع الإبقاء على ذكرى الأيام والليالي، وساعد على ذلك ما أبدعه عمر بن أبي ربيعة في فن الحوار.

وهذا ما يجعل عمر بن أبي ربيعة عاشقاً عصرياً، ويؤكد ذلك ما ذكره شوقي ضيف في قوله:

« إن غزل عمر صيغ من مادة معاصرة، سواء من حيث النفسية التي تتغلغل فيه، أو من حيث الأوزان التي ينظم فيها، وأيضاً من حيث اللغة، فهو من لغة قريبة. لغة مألوفة للناس، ليس فيها الإعراب الذي نجده عند القدماء، أو الذي نجده عند شعراء العراق مثل الفرزدق، وإنما فيه الخفة والقرب ، وما يلائم الأذواق المتحضرة الجديدة[1] ».

ففي النص الشعري، نلمس الموقف التمهيدي والاستهلالي، وخروج البطل، والشخصيات الأساسية والثانوية والحوار ولحظة التنوير التي يعبر عنها الشاعر في نهاية قصيدته حين يفسر اسم القلب من التقلب ، وكأن الشعر تفسير للأسماء أو إعادة اكتشاف لرؤية الإنسان للعالم عن طريق اللغة، وذلك ما تفعله القصيدة في نهايتها. وإذا كانت العناصر القصصية كلها مجتمعة في هذه القصة الشعرية، فإن أبرز ما نقابله داخل هذه العناصر الشخصية النسائية، ويبرز الشاعر القاص مهارة فائقة في الوقوف على أسرار نفسية المرأة وظهور هذه النفسية بوضوح في حوارها ومن خلال لغة قريبة من لغتها، فهو يحاكيها بفنية وتمكن.

---

(1) د / شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي الطبعة السادسة. دار المعارف ١٩٥٩ ص ٢٤٢

تتجلى شخصية الحبيبة العاشقة المعشوقة التي نعرف أن اسمها ثريا من النص القصصي، ولكنها في النص الشعري تصبح شخصية مجردة رمزية دون اسم ما، لأنها ليست ثريا التي يعرفها الآخرون، و إنما هي رمز بالنسبة لنفسية الشاعر، هذا الرمز الذي يلهمه يكتسب تجريداً من خلال حذف الاسم، ولكنه يكتسب حيوية من خلال الحديث بالصوت

ومن طرائف التعبيرات الشعرية قول المرأة العاشقة لحاضنتها

« واحتفظي في بعض معتبة أن تغضبي الرجلا» - فحبيبها بالنسبة إليها هو الرجل ، النصف الآخر، ثنائية الوجود ، وهذا تعبير نسائي أجاده عمر بن أبي ربيعة، وإن كنا نلمس ذلك في الشعر العربي منذ الشعر الجاهلي في معلقة الأعشي المشهورة "ودع هريرة أن الركب مرتحل" حين يقول على لسان حبيته التي تخاطبه، وهي بين حبهاله وخوفها منه ومن هذا الحب: "ويلي عليك وويلي منك يا رجل".

و لا يقف حوار الحب عند حديث الحبيبة إلى حاضنتها، ولكي تقوم بدور الرسول، فالشاعر يقوم برد الخطاب بعد أن يصله من الحاضنة وبذلك تكون المقطوعة الشعرية التي بين أيدينا على صغرها رسالتين في الحب: الأولى من الحبيبة والثانية الرد عليها من الحبيبة.

وكما ألمحنا في دراسة الخير فإن توظيف النص الشعري في النص الخبري هنا يمثل رواية أخرى للخبر أو وجهة نظر مغايرة ، قائمة على الراوي البطل المشارك في الأحداث الذي يرويها بضمير المتكلم ، فيكون أمامنا نص قصصي آخر هو نص شعري من جهة وبوجهة نظر أخرى من جهة أخرى.

ولك أن تتصور معي أيها القارئ الكريم بعض الملاحظات التي تم استخلاصها في تجربة عمر بن أبي ربيعة من خلال الأخبار التي وردت في كتاب الأغاني للأصفهاني وهي كالآتي:

١- ليس عمر من شعراء الفكر والخيال، إنما هو شاعر الذكرى ، وشاعر الأحاديث، فقد نشأ ميالاً إلى التحدث والسمر[١٢].

٢- إن عمر قد وصف المرأة من الناحيتين الخارجية والنفسية: فعمد في الناحية الأولى إلى الأوصاف والتشبيهات التقليدية، وعمد في الناحية الثانية إلى نفسية المرأة مثل أخلاقها وميولها وأساليبها في الحديث وحركاتها في مختلف مواقفها ولا سيما في مجالس اللهو[١٣].

٣- وصواحب عمر مترفات غنيات شريفات منصرفات للقراءة والكتابة، ومن أشهر أولئك: ليــلى بنت الحارث البكرية، ورمــله بنت عبد الله بن خلف الخزاعية، وفاطمة بنت محمد الأشعث الكندي، ومنهن زوجة شيخ النحو أبي الأسود الدؤلي[١٤]. وهذا يرجع إلى أن عمر كان يحب بحسه لا بعقله وقلبه، ولهذا كان له عدة حبيبات، ولم يختص بحبيبة واحدة[١٥].

---

(١٢) حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي- ط ١٢/ ١٩٨٧م
(١٣) السابق: ص ٢٥٧.

(١٤) انظر المرجع السابق ص ٢٥٧ ، ويرجع هذا التعدد في العشقيات إلى خبرة عمر في إبراز طبيعة المرأة واستقراء عواطفها وسَبر أغوار عالمها النفسي، حتى تحوّل عمر من عاشق إلى معشوق في بعض الحالات.
(١٥) د/ طه حسين: حديث الأربعاء- ص ٢١٠

• قال عمرّ بن أبي ربيعة :

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غادٍ فَمُبْكِرُ ... غَداةَ غَدٍ أَمْ رائِحٌ فَمُهَجِّرُ
بِحَاجَةِ نَفْسٍ لَمْ تَقُلْ فِى جَوابِها ... فَتُبْلِغَ عُذْرًا وَالْمَقالَةُ تُعْذِرُ
تَهِيمُ إِلى نُعْمٍ فَلا الشَّمْلُ جَامِعٌ ... وَلا الْحَبْلُ مَوْصُولٌ وَلا الْقَلْبُ مُقْصِرُ
وَلا قُرْبُ نُعْمٍ إِنْ دَنَتْ لَكَ نافِعٌ ... وَلَا نَأْيُهَا يُسْلِى وَلَا أَنْتَ تَصْبِرُ
وَأُخْرَى أَتَتْ مِنْ دونِ نُعْمٍ وَمِثْلُهَا ... نَهَى ذا النُّهَى لَوْ تَرْعَوِى أَوْ تُفَكِّرُ
إِذا زُرْتُ نُعْمًا لَمْ يَزَلْ ذُو قَرابَةٍ ... لَهَا كُلَّما لاقَيْتُهَا يَتَنَمَّرُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ أُلِمَّ بِبَيْتِهَا ... يُسِرُّ لِىَ الشَّحْنَاءَ وَالْبُغْضُ مُظْهَرُ
أَلِكْنِى إِلَيْها بِالسَّلامِ فَإِنَّهُ ... يُشَهَّرُ إِلْمامِى بِها وَيُنَكَّرُ
بِآيَةِ ما قالَتْ غَداةَ لَقِيتُهَا ... بِمَدْفَعِ أَكْنانٍ أَهٰذا الْمُشَهَّرُ
قِفِى فَانْظُرِى أَسْماءُ هَلْ تَعْرِفِينَهُ ... أَهٰذَا الْمُغِيرِىُّ الَّذِى كانَ يُذْكَرُ
أَهٰذَا الَّذِى أَطْرَيْتِ نَعْتًا فَلَمْ أَكُنْ ... وَعَيْشِكِ أَنْساهُ إِلَى يَوْمِ أُقْبَرُ
فَقالَتْ نَعَمْ لا شَكَّ غَيَّرَ لَوْنَهُ ... سُرَى اللَّيْلِ يُحْيِى نَصَّهُ وَالتَّهَجُّرُ
لَئِنْ كانَ إِيَّاهُ لَقَدْ حالَ بَعْدَنا ... عَنِ الْعَهْدِ وَالْإِنْسانُ قَدْ يَتَغَيَّرُ
رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذا الشَّمْسُ عارَضَتْ ... فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِىِّ فَيَخْصَرُ
أَخا سَفَرٍ جَوّابَ أَرْضٍ تَقاذَفَتْ ... بِهِ فَلَواتٌ فَهْوَ أَشْعَثُ أَغْبَرُ
قَلِيلٌ عَلَى ظَهْرِ الْمَطِيَّةِ ظِلُّهُ ... سِوَى ما نَفَى عَنْهُ الرِّداءُ الْمُحَبَّرُ

وأعجبها من عيشها ظلّ غرفة   وريّان ملتفّ الحدائق أخضر
ووال كفاها كلّ شيء يهمّها   فليست لشيء آخر الليل تسهر
وليلة ذي دوران جشّمتني السُّرى   وقد يجشم الهول المحبّ المغرّر
فبتّ رقيبا للرفاق على شفا   أحاذر منهم من يطوف وأنظر
إليهم متى يستمكن النوم منهم   ولي مجلس لولا اللبانة أوعر
وباتت قلوصي بالعراء ورحلها   لطارق ليل أو لمن جاء معور
وبتّ أناجي النفس أين خباؤها   وكيف لما آتي من الأمر مصدر
فدلّ عليها القلب ريّا عرفتها   لها وهوى النفس الذي كاد يظهر
فلمّا فقدت الصوت منهم وأطفئت   مصابيح شبّت بالعشاء وأنور
وغاب قمير كنت أهوى غيوبه   وروّح رعيان ونوّم سمّر
وخفّض عنّي الصوت أقبلت مشية الـحباب وشخصي خشية الحيّ أزور
فحيّيت إذ فاجأتها فتولّهت   وكادت بمخفوض التحيّة تجهر
وقالت وعضّت بالبنان فضحتني   وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك إذ هنّا عليك ألم تخف   وقيت وحولي من عدوّك حضّر
فوالله ما أدري أتعجيل حاجة   سرت بك أم قد نام من كنت تحذر
فقلت لها بل قادني الشوق والهوى   إليك وما نفس من الناس تشعر
فقالت وقد لانت وأفرخ روعها   كلاك بحفظ ربّك المتكبّر
فأنت أبا الخطّاب غير مدافع   عليّ أمير ما مكثت مؤمّر
فيا لك من ليل تقاصر طوله   وما كان ليلي قبل ذلك يقصر
ويا لك من ملهى هناك ومجلس   لنا لم يكدّره علينا مكدّر
يمجّ ذكيّ المسك منها مقبّل   نقيّ الثنايا ذو غروب مؤشّر
تراه إذا ما افترّ عنه كأنّه   حصى برد أو أقحوان منوّر

وتَرْنُو بِعَيْنَيْها إلَيَّ كَما رَنا ... إلَى ظَبْيَةٍ وَسْطَ ٱلْخَمِيلَةِ جُؤْذَرُ
فَلَمَّا تَقَضَّى ٱللَّيْلُ إلَّا أَقَلَّهُ ... وكادَتْ تَوالِي نَجْمِهِ تَتَغَوَّرُ
أَشارَتْ بِأَنَّ ٱلْحَيَّ قَدْ حانَ مِنْهُمُ ... هُبُوبٌ وَلٰكِنْ مَوْعِدٌ مِنْكَ عَزْوَرُ
فَما راعَنِي إلَّا مُنادٍ تَرَحَّلُوا ... وقَدْ لاحَ مَعْرُوفٌ مِنَ ٱلصُّبْحِ أَشْقَرُ
فَلَمَّا رأَتْ مَنْ قَدْ تَنَبَّهَ مِنْهُمُ ... وأَيْقاظَهُمْ قالَتْ أَشِرْ كَيْفَ تَأْمُرُ
فَقُلْتُ أُبادِيهِمْ فَإمَّا أَفُوتُهُمْ ... وَإمَّا يَنالُ ٱلسَّيْفُ ثَأْرًا فَيُثْأَرُ
فَقالَتْ أَتَحْقِيقًا لِما قالَ كاشِحٌ ... عَلَيْنا وتَصْدِيقًا لِما كانَ يُؤْثَرُ
فَإنْ كانَ ما لا بُدَّ مِنْهُ فَغَيْرُهُ ... مِنَ ٱلأَمْرِ أَدْنَى لِلْخَفاءِ وأَسْتَرُ
أَقُصُّ عَلَى أُخْتَيَّ بَدْءَ حَدِيثِنا ... وما لِيَ مِنْ أَنْ تَعْلَما مُتَأَخَّرُ
لَعَلَّهُما أَنْ تَطْلُبا لَكَ مَخْرَجًا ... وأَنْ تَرْحُبا سِرْبًا بِما كُنْتُ أَحْصَرُ
فَقامَتْ كَئِيبًا لَيْسَ فِي وَجْهِها دَمٌ ... مِنَ ٱلْحُزْنِ تُذْرِي عَبْرَةً تَتَحَدَّرُ
فَقامَتْ إلَيْها حُرَّتانِ عَلَيْهِما ... كِساءانِ مِنْ خَزٍّ دِمَقْسٌ وأَخْضَرُ
فَقالَتْ لِأُخْتَيْها أَعِينا عَلَى فَتًى ... أَتَى زائِرًا وَٱلأَمْرُ لِلأَمْرِ يُقْدَرُ
فَأَقْبَلَتا فَٱرْتاعَتا ثُمَّ قالَتا ... أَقِلِّي عَلَيْكِ ٱللَّوْمَ فَٱلْخَطْبُ أَيْسَرُ
يَقُومُ فَيَمْشِي بَيْنَنا مُتَنَكِّرًا ... فَلا سِرُّنا يَفْشُو وَلا هُوَ يَظْهَرُ
فَكانَ مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي ... ثَلاثُ شُخُوصٍ كاعِبانِ ومُعْصِرُ
فَلَمَّا أَجَزْنا ساحَةَ ٱلْحَيِّ قُلْنَ لِي ... أَلَمْ تَتَّقِ ٱلأَعْداءَ وَٱللَّيْلُ مُقْمِرُ
وقُلْنَ أَهٰذا دَأْبُكَ ٱلدَّهْرَ سادِرًا ... أَما تَسْتَحِي أَوْ تَرْعَوِي أَوْ تُفَكِّرُ
إذا جِئْتَ فَٱمْنَحْ طَرْفَ عَيْنَيْكَ غَيْرَنا ... لِكَيْ يَحْسِبُوا أَنَّ ٱلْهَوَى حَيْثُ تَنْظُرُ
فَآخِرُ عَهْدٍ لِي بِها حِينَ أَعْرَضَتْ ... ولاحَ لَها خَدٌّ نَقِيٌّ وَمَحْجِرُ
سِوَى أَنَّنِي قَدْ قُلْتُ يا نُعْمُ قَوْلَةً ... لَها وَٱلْعِتاقُ ٱلأَرْحَبِيّاتُ تُزْجَرُ
هَنِيئًا لِأَهْلِ ٱلعامِرِيَّةِ نَشْرُها ٱلأَـلَذِيذُ ورَيّاها ٱلَّذِي أَتَذَكَّرُ

فَقُمْتُ إلَى عَنْسٍ تَخَوَّنَ نَيَّهـــا   سُرَى اللَّيْلِ حَتَّى لَحْمُها مُتَحَسِّرُ
وَحبْسى علَى الْحاجاتِ حَتَّى كَأنَّها   بَقِيَّةُ لَوْحٍ أوْ شِجارٌ مُـــؤَسَّرُ
وماءٍ بِمَوْماةٍ قَليــــلٍ أنيسُـــهُ   بَسابِسَ لَمْ يَحْدُثْ بِهِ الصَّيْفَ مَحْضَرُ
بِهِ مُبْتَنًى لِلْعَنْكَبوتِ كَأنَّـــهُ   عَلَى طَرَفِ الأرْجــاءِ خامٌ مُنَشَّرُ
وَرَدتُ وَما أدرِى أما بَعْدَ مَوْرِدى   مِنَ اللَّيْلِ أمْ ما قَدْ مَضَى مِنهُ أكْثَرُ
فَقُمْتُ إلَى مِغْلاةِ أرْضٍ كَأنَّهـــا   إذا التَفَتَتْ مجْنونَةٌ حينَ تَنْظُرُ
تُنازِعُنى حِرْصا علَى الْماءِ رَأْسَها   وَمِنْ دونِ ما تَهْوَى قَليبٌ مُعَوَّرُ
مُحاوِلَةً لِلْماءِ لَوْلا زِمامُهـــــا   وَجذْبِى لَها كَادَتْ مِرَارا تَكَسَّـــرُ
فَلَمَّا رأيْت الضرَّ مِنْها وأنَّنى   بِبَلْدَةِ أرضٍ لَيس فيهـــا مُعَصَّرُ
قَصَدْتُ لَها مِنْ جانبِ الْحَوْضِ مُنْشَأً   جديدًا كَقابِ الشِّبْرِ أوْ هُو أصْغَرُ
إذا شَرَعتْ فيهِ فلَيْسَ لِمُلْتَقَى   مَشافِرِها مِنْه قِدَى الْكَفِّ مُسْأَرُ
وَلا دَلْوَ إلَّا الْقَعْبُ كانَ رِشاءَهُ   إلَى الْماءِ نِسْعٌ وَالأدِيمُ الْمُضَفَّرُ
فَسافَتْ وما عافَتْ وما رَدَّ شُرْبَها   عَنِ الرِّىِّ مَطْرُوقٌ مِنَ الْماءِ أكْدَرُ